أعلام العرب

١٣

الطبرى

بقلم

الدكتور أحمد محمد الحوفى

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

اهداءات ٢٠٠٣

. المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أما بعد :

فقد يكون من المقال المكرر المعاد أننا فى نهضتنا العربية وفى وثبتنا الاسلامية بحاجة الى ابتعاث ماضينا المشرق الزاهر ، وبحاجة الى احياء تراثنا الفكرى الزاخر ، والتأسى بما كان لنا فى ميادين الفكر والحضارة والبطولة من آثار سباقة ، وأعلام خفاقة ، وأعمال مجيدة مشهودة .

ولكن هذا القول — على تكراره — لا يصح أن تنصرف عنه الأقلام ، أو تصدف عنه الألسنة ، ولا يصح أن تمله النفوس ، أو تستثقله الأسماع ، لأنه حق ، وما كان ترديد الحق ليُستَئم أو يستكره ، ولأنه تقوية للعزائم المتوثبة، وتغذية للآمال الطماحة ، ووصل طبيعى بين ماض متألق ، وحاضر متوثب ، ومستقبل عظيم مأمول ، وليس فى هذا مايدعو الى ضجر أو ملال .

والحق أن نهضتنا تقتضينا أن نرعاها بعدة وسائل ، من أهمها أن نؤسس صرحها على دعائم وطيدة من ماضينا ، لأن

هذا أدعى الى قوتها وثباتها واطّرادها ، والا كان صرحها مشيدا على كتيب مهيل من الرمال ، لا يلبث أن ينهار ، أو كالفقاعات لا تلبث أن تنتفخ وتتألق حتى تؤذن بالانطفاء والزوال .

ولا شك أن هذه الخواطر جالت من قبل فى نفوس كثير من العلماء والأدباء ، فاجتهدوا فى احياء تراثنا العظيم ، وترددت فى تفكير القادة والقائمين بتشجيع المعرفة بوزارة الثقافة والارشاد ، فدعوا الى الكتابة عن رواد الفكر الاسلامى ورجالات الاسلام فى سلسلة الأعلام .

وهذا الكتاب الذى أساهم به فى هذه السلسلة يتناول شخصية من أبرز هذه الشخصيات ، وأعظمها أثرا فى عصره وفيما بعده .

فقد خلف الطبرى من المؤلفات ثروة ضخمة استمدها معاصروه ولاحقوه ، وما زالت كنوزها حلاً للباحثين الى اليوم ..

وكان الطبرى يتحلى بكثير من الخلال العالية ، والأخلاق الرفيعة فى علاقاته وصلاته ، وشغفه بالعلم ، وصبره على البحث والانتاج والتثقيف ، جعلت منه عالما عظيما فى رجل عظيم .

وقد تناولت فى دراسته هذه النواحى ، وما يتصل بها من قريب .

ولم يكن بد من الالمام السريع بعصره العلمى ، وبخاصة

فى الأقاليم التى رحل اليها ، واستقى من علمها وعلمائها .

ثم تحدثت عن نسبه ، وموطنه الأصيل ، ومعالم حياته .

وعرضت لرحلاته ، وأساتذته ، وثقافته ، وتلاميذه .

ورسمت صورة لشخصيته من صفاته الجسمية والخلقية والعقلية ، بالقدر الذى استطعت أن أعثر على ألوانه فى المصادر التى أرخت له .

وعرّفت بمؤلفاته كلها ، ما بقى منها وما ضاع .

وألممت بطرف من عقيدته وآرائه العامة .

ثم درست الطبرى المفسر ، وموضوعات كتابه فى التفسير ، ومصادره ، ومنهجه ، ومزاياه ، والمآخذ عليه .

ودرست الطبرى المؤرخ ، وموضوعات كتابه فى التاريخ ، والينابيع التى استقى منها ، والطريقة التى انتهجها ، وما يتسم به كتابه من مميزات وعيوب .

وختمت البحث بدراسة للطبرى الفقيه ، وضربت أمثلة من مذهبه الذى استقل به .

وقد آثرت فى دراسة الطبرى مفسرا ومؤرخا وفقيها أن أرسم الصور العامة لمنهجه ، وأن أكتفى بأمثلة من كتبه ، لأن استيعاب آرائه أو التوسع فى ضرب الأمثلة ، يخرج بالبحث عن التعريف بالرجل وآثاره الى تلخيص كتبه وايجاز آرائه .

أما المصادر التى رجعت اليها فهى مؤلفات الطبرى ، وما كتب عنه .

وقد تبينت من مؤلفاته أن بعض ما اتهم به باطل أملاه الحقد ، أو التسرع فى الحكم ، أو عدم التثبت .

وانى اذ أقدم هـــذه الدراسة أرجو أن تكون جـــديرة باحياء ذكرى عالم كبير ينبغى أن نشيد به ، كفاء ما غرس فى حقل المعرفة من شجرات مثمرات ، لا يتخلف اثمارها على دوران الفصول ، ولا يعتريها نقصان من كثرة القاطفين على تتابع الأجيال والأعصار .

احمد محمد الحوفى

القاهرة فى { شعبان سنة ١٣٨٢
ينـــاير سنة ١٩٦٣ }

الفصل الأول

عصره العام

عودة الى الماضى

الى الماضى البعيد

عودة تتخطى اليها أحد عشر قرنا من عمر الثقافة العربية الاسلامية ، لنرى على أشرطة الزمن التى سجلها مايعنينا من الجو الفكرى الذى عاش فيه الطبرى وتأثر به ، الجو العام فى العالم الاسلامى ، والجو الخاص فى الأقاليم التى ارتحل الطبرى اليها ، وأقام بها ، وارتوى من ينابيعها .

سنرى فى هذه العودة أن الفترة بين شروق حياة الطبرى وغروبها أعظم الفترات ثراء بالعلم والعلماء ، اذ عاش فى القرن الثالث خمسا وسبعين سنة ، وأدرك من القرن الرابع عقده الأول .

فاذا نظرنا الى العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وجدناها قد استوت سوقها . وبسقت فروعها ، حيث استقرت دعائم المذاهب الأربعة وكثرت مؤلفاتها ، ووضعت الكتب الصحاح الستة فى الحديث [1] .

---

(١) ألف البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ الجامع الصحيح ، وألف مسلم المتوفى سنة ٢٦١ صحيح مسلم ، وألف ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ سننه ، وألف ابن داود المتوفى =

وانتهت القراءات الى غاياتها ، وجعلت روايات التفسير بالمأثور تشرق وتغرب ، وجعل التفسير بالرأى يزاحمها وينافسها .

أما العلوم اللغوية من نحو وصرف وعروض وأدب وبلاغة فقد كانت تسارع الى النضج والاستقرار على مذاهب وآراء ، ومؤلفاتها تتوالى وتتنافس .

وفى هذه الفترة وضعت كتب كثيرة فى السيرة والمغازى والفتوح .

وكان المسلمون قد ترجموا كثيرا من كتب اليونان والفرس والهنود ، واستفادوا منها ، وناقشوا بعضها ، وأضافوا اليها كثيرا من ثمرات تفكيرهم وابتكارهم .

واذا كانت الدولة قد اعتراها الوهن السياسى ، فضعف الخلفاء العباسيون حتى انتسخ ظلهم ، وتمزقت مملكتهم الكبرى الى ممالك وولايات وامارات ، فان النهضة العلمية والأدبية لم تتعثر ، ولم تتوقف ، بل استمرت تشق طرقها متأثرة بدوافعها الأولى ، والدولة قوية جادة فى تنشيط العلم وتشجيع رجاله ، ومتأثرة بدوافع جديدة ، من تقدير الحكام للعلم والعلماء ، ومن شغف العلماء والأدباء بالدرس

ـسنة ٢٧٥ سننه ، وألف الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ جامعه والف النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ سننه . وهذه هي الكتب الستة التى تعد أصح كتب الحديث ، ويلحق بها مسند أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ .

والتحصيل ، وتنافس العواصم والحواضر فى الانتاج والابتكار وقيادة الحركة الفكرية والأدبية [1] ولم يختص اقليم من الدولة الاسلامية بهذه التيارات الفكرية ، بل ان هذه التيارات جرت فى العالم الاسلامى كله من الرى الى الأندلس ، فزخرت العواصم والحواضر بهذه التيارات .

وقد طوّف الطبرى فى طبرستان والعراق والشام ومصر، واستقى من ينابيع الثقافة فى كثير من المدن ، كما سيتبين من رحلاته .

فكيف كانت الحياة العلمية فى هذه الأقاليم ؟

وبم اشتهرت المدن التى درس فيها ؟

ومن العلماء الأعلام الذين عاصرهم أو نهل من ثقافتهم ؟

---

(١) عاش الطبرى من ٢٢٤ الى ٣١٠ وفى هذه الفترة تولى الخلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢) ويعتبر عهد الواثق نهاية العصر الذهبى للدولة العباسية · ثم تولى بعدهم فى عصر نفوذ الأتراك : المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧) والمنتصر (٢٤٧ ـ ٢٤٨) والمستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢) والمعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥) والمهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦) والمعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩) والمعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩) والمكتفى (٢٨٩ ـ ٢٩٥) والمقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠) وكانت الدولة الطولونية قد قامت بمصر والشام فى عهد المعتز بالله ودامت من ٢٤٥ الى ٢٩٢ هـ ·

والدولة السامانية قامت فى عهد المعتضد بالله وعاشت من ٢٦١ الى ٣٨٩ ·

والدولة الحمدانية قامت بحلب والموصل (٣١٧ ـ ٣٩٤) ·

أما الاخشيدية بمصر والشام فقامت بعد موت الطبرى (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) ·

فى فارس

حفلت فارس بمراكزها الثقافية فى هذه الحقبة ، فكان فى الجنوب سيراف وفيروزاباد وأرزنجان واصطخر وشيراز ، وكان فى الشمال — بلاد الجبل — أصبهان وهمذان ودينور وقومس والرى .

وقد تخرج فى هذه المدن كثير من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين واللغويين والنحاة والأدباء والفلاسفة ، درس الطبرى على بعضهم كما سنبين فى رحلاته .

وبحسب هذا الاقليم أن تخرج فيه ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ وقد اشتهر بالأدب والفلسفة والمنطق والهندسة ، وتخرج فيه ابن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ وقد كان معتزليا متبحرا فى العلوم الشرعية واللغوية والأدبية (١)

ومن علماء الاقليم ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ كان اماما فى اللغة وله كتاب المجمل ، وكتاب حلية الفقهاء ، وكتاب الصاحبى .

ومنهم أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ مؤلف كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه .

---

(١) كان ابن العميد وزيرا لركن الدولة البويهى وكان ابن عباد كاتبا لابن العميد وتلميذا له ، فسمى الصاحب لملازمته اياه ، ثم تولى الوزارة لمؤيد الدولة البويهى ومن بعده لأخيه فخر الدولة ، وخلف ابن العميد فى هذا المنصب .

ومنهم أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ مؤلف كتاب الصناعتين ، وديوان المعانى ، وجمهرة الأمثال ، والأوائل .

أما المحدثون والفقهاء فيمثلهم أبو محمد عبد الله بن حَيَّان الأصفهانى المتوفى سنة ٣٦٧ ، وهو امام فى الحديث ، وله كتاب السنة وفضائل الأعمال .

ويمثلهم أبو بشر محمد بن أحمد الدولابى (١) المتوفى سنة ٣٢٠ ، ومحمد بن حَمِيد الرازى (٢)

وأما المؤرخون فمنهم الدولابى ، وله مؤلفات فى التاريخ والحديث .

وقد عاش فى هذه الفترة أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣١١ (أو ٣٢٠) وهو من أكبر أطباء المسلمين ، وله كتب كثيرة بقى منها نحو سبعة عشر (٣)

فى العراق

كان العراق فى القرن الثالث أبرز مراكز الثقافة فى العالم الاسلامى وأوسعها علما ، وأكثرها علماء ، لأنه مقر الخلافة العباسية ، ومهوى العلماء والأدباء ، ومجمع ثقافات شتى ومذاهب وآراء .

---

(١) نسبة الى دولاب قرية بالرى .
(٢) نسبة الى الرى .
(٣) ظهر الاسلام ١/ ٢٤٥ .

وكانت الدراسات به متنوعة ، فهنالك التفسير والحديث والفقه والقراءات ، وهنالك الفلسفة والمذاهب الكلامية ، وهنالك اللغة والنحو والأدب والتاريخ ، وبجانب هذا كله العلوم الرياضية والطب والجغرافية .

وقد تزعمت المدن الثلاث الكبار : بغداد والبصرة والكوفة قيادة النشاط العلمي والأدبي ، وازدحمت بالعلماء والطلاب ، وقامت بينها منافسات شتى أرّثت هذا النشاط .

١ — كانت الدراسات الفقهية مزدهرة بالعراق فى تلك الفترة ، والمذاهب الأربعة ممثلة هناك .

وقد اشتهر من الحنفية أبو الحسن عبيد الله الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠ وهو امام الحنفية فى عصره .

واشتهر من المالكية أبو اسحاق اسماعيل بن اسحاق ابن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ، وهو صاحب مؤلفات كثيرة فى الفقه المالكى وعلوم القرآن ، وقد تولى قضاء بغداد نيفا وخمسين سنة .

وكان هناك من الشافعية أبو على الكرابيسى البغدادى المتوفى سنة ٢٤٥ رئيس الشافعية ببغداد،وأبو على الزعفرانى المتوفى سنة ٢٦٠ وأبو على الحسن بن القاسم الطبرى البغدادى المتوفى سنة ٣٠٥ مؤلف كتاب المحرر فى النظر ، وهو من أوائل الكتب فى الخلاف بين الفقهاء ، وله كتاب الافصاح فى الفقه ، وكتاب فى الأصول ، وكتاب فى الجدل .

واشتهر من الحنابلة عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل

المتوفى سنة ٢٩٠ ، روى عن أبيه المسند والتفسير ، وأبو اسحاق ابراهيم الحربى المتوفى سنة ٢٨٥ ، وأبو بكر عبد الله بن داود الازدى السجستانى المتوفى سنة ٣١٦

وتميز الحنابلة بنفوذهم العظيم فى بغداد والعراق ، لشدة تعصبهم لآرائهم ، واتخاذهم القوة وسيلة الى فرضها على الناس ، وتعديهم على مخالفيهم من أهل المذاهب ، وصبرهم على مايلقون من محن ومقاومات ، محاكاة لأستاذهم الأكبر أحمد بن حنبل فى صبره على الاضطهاد أيام محنة القول بخلق القرآن .

وكان بالعراق داود الظاهرى وهو أصفهانى الأصل بغدادى الدار ، وقد أسس مذهبا عماده انكار القياس ، لأن فى الكتاب والسنة مايفى بمعرفة الواجبات والمحرمات ، لهذا كان يقدم ظواهر آيات القرآن والحديث على التعليل العقلى للأحكام ، مات داود ببغداد سنة ٢٧٠ ونشر مذهبه بعده ابنه محمد المتوفى سنة ٢٩٧ ، وقد كثر أتباع هذا المذهب بالعراق وفارس والأندلس .

ثم انقرضوا بعد المائة الخامسة .

٢ — وفى هذه الحقبة التى عاصرها الطبرى كانت العلوم الأدبية قد نضج بعضها ، وقارب النضج بعضها الآخر .

وكان من العلماء البارزين حينئذ ابن دُرَيْد الأزدى (٢٢٣ — ٣٢١) وهو من أكبر علماء العربية فى اللغة والأدب والنحو والصرف والنسب ، وأستاذ أبى على القالى وأبى

سعيد السيرافى وأبى الفرج الأصفهانى ، وله عدة كتب منها الجمهرة ، والاشتقاق ، وله قصيدة المقصورة .

ومنهم أبو بكر بن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ ، وهو عالم باللغة والأدب والقرآن والسنة ، ومؤلف كتب كثيرة منها شرح المفضّليات .

وعاش فى هذه الحقبة أبو الفرج الأصفهانى (٢٨٤ — ٣٥٦) مؤلف كتاب الأغانى .

٣ — وكان المعتزلة قد أذاعوا آراءهم فى العراق ، وتصدروا الحركة الفكرية ، وفى هذه الفترة آلت زعامتهم الى أبى على الجبّائى (٢٣٥ — ٣٠٣)

وقد تتلمذ عليه أبو الحسن الأشعرى (٢٧٠ — ٣٣٠) ثم خرج على الاعتزال وناهضه ، وألف فى الرد عليه كتبا كثيرة خالف فيها المعتزلة فى كثير من أصول مذهبهم ، كقولهم بالاختيار المطلق ، ووجوب العدل على الله ، وأن القرآن مخلوق .

فى الشام

كان أهل الشام قبل الفترة التى عاش فيها الطبرى يلتزمون مذهب الأوزاعى المتوفى سنة ١٥٧ وهو عبد الرحمن ابن عمرو ، عربى يمنى من الأوزاع احدى بطون همدان .

سمع الأوزاعى من شيوخ اليمامة ومكة والبصرة ، ثم نزل دمشق ، ثم رحل الى بيروت ، وتوفى بها .

وله مذهب فى الفقه كمذهب أبى حنيفة ومالك ، وهو أكثر ميلا الى مدرسة الحديث منه الى مدرسة الرأى .

وفى الفترة التى طوّف فيها الطبرى كان الشاميون قد آثروا مذهب الشافعى على مذهب الأوزاعى ، وأحلوه محله.

وكان العباس بن الوليد البيروتى يقرىء برواية الشاميين، وهو الذى قرأ الطبرى عليه القرآن بروايتهم .

فى مصر

لم تلبث مصر أن صارت منذ القرن الثانى مهبط كثير من العلماء والطلاب ، ثم سرعان ما صارت مركزا من مراكز الثقافة والعلم .

وكان جامع الفسطاط مجتمع المدرسين والطلاب ، وملتقى الفقهاء والعلماء والأدباء ، ومنبع الافتاء ، ومرَاد العطاش الى الثقافة .

وكانت الصدارة للعلوم الدينية ، فاحتفت بها مصر ، واشتهر علماؤها بالقراءات ، ورواية الحديث ، وتفسير القرآن ، وتفهم معانيه ، والوقوف على آراء الأئمة فى الفقه ، واستنباط الأحكام .

وهذا المنهج نفسه كان سائدا فى العراق ، اذ كانت رحلات العلماء والطلاب بين الاقليمين لا تنقطع ، فالمناهج متماثلة ، والموضوعات متشاكلة ، كأن البلاد الاسلامية كلها بلد واحد

وقد وفد الطبرى الى مصر ، وسمع من علمائها ، وقرأ ما استطاع أن يقرأ من مؤلفات العلماء الذين لم يسمع منهم، كما يتضح من حياته فى مصر .

— ١ —

كان من الصحابة الذين قدموا الى مصر رواة الحديث ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثرهم رواية ، وقد دأب على أن يكتب ما يسمع من رسول الله ، وكانت له صحيفة دون فيها ماسمعه من الرسول ، وسماها الصادقة ، وقال : ليس بينى وبينه فيها أحد (١) .

لهذا كان كثيرا ما يرجع فى مصر الى مدوناته اذا ما سئل وأراد التثبت قبل أن يجيب . ويذكر ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر أن المصريين رووا عنه مائة حديث ونيفا ، كما يذكر فى آخر كتابه فصلا بالأحاديث التى رواها المصريون عن الصحابة الذين وفدوا الى مصر . وقد استقى أصحاب الكتب الستة فى الأحاديث النبوية من رواة مصريين، فمثلا استقى البخارى من سعيد بن عفير ، ومن يحيى بن بكير ، وعبد الله بن صالح ، وروى مسلم عن أحمد بن يونس ويحيى التميمى .

وكان فى مصر محدث مصرى عظيم الشأن هو عبد الله بن وهب بين مسلمة القرشي بالولاء المتوفى سنة ١٩٧ هـ وقد رحل الى المدينة وأخذ عن ما لك ، وكان مالك يثق به ويكتب

(١) الطبقات الكبرى ١٨٩/٧ .

اليه فيلقبه بالمفتى ، ولم يكن يفعل هذا مع غيره ، وأخذ عنه كثير من المصريين[1] ولا بن وهب كتاب (الجامع فى الحديث) يعد من أقدم الكتب المدونة فى الحديث النبوى ، روى أكثره عن ما لك بن أنس وعبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى .

وكان بها الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، وهو فارسى الأصل ، لكنه ولد بمصر ، وتثقف على علمائها ، وذهب الى الحجاز فسمع من نافع وغيره ، وشخص الى بغداد سنة ١٥٩ هـ وسمع من علمائها ، وذاعت شهرته وفضله ، حتى ان الامام مالك بن أنس كان يقول عنه حدثنى من أرضى من أهل العلم ، وتتلمذ على الليث كثير من علماء الحديث منهم عبد الله ابن وهب وأشهب ، وكثير من شيوخ أحمد بن حنبل ، وكان له مذهب خاص امتدحه الشافعى ، وقال ان تلاميذه لم ينهضوا به .

ومن تلاميذه اسحاق بن الفرات صاحب مالك المتوفى سنة ٢٠٤ وقد وصفه الشافعى بقوله : ما رأيت فى مصر أعلم منه باختلاف الناس[2]

ثم اشتهر من المالكية روح بن الفرج أبو الزنباع الزبيرى المتوفى سنة ٢٨٢ وأحمد بن الحارث بن مسكين المتوفى سنة ٣١١ هـ[3]

---

(١) وفيات الأعيان ٢٤٩/١ .
(٢) حسن المحاضرة ٢١١/١ .
(٣) ظهر الاسلام ١٦٣/١ .

فلما وفد الشافعي الى مصر سنة ١٩٩ تحلق حوله طلاب الحديث والفقه ، وكان فيهم كثير من أنصار مالك ، وجعلت مدرسة الشافعي تزاحم مدرسة مالك ، وجعلت بمناقشاتها ومناظراتها توقظ الأذهان الى قيمة الجدال العلمي ، اذ كان المصريون قبل الشافعي على مذهب واحد، وكانوا لا يحفلون بالمناظرة كما كان يحفل بها أهل العراق . فلما درس الشافعي بالعراق عرف هنالك مايجرى من مناظرات بين المتكلمين وأرباب النحل ، وشارك في بعضها إذ ناظر محمد بن الحسن الشيباني وغيره ، ثم جاء الى مصر فنقل المناظرة معه ، وكان يناظر بعض المصريين ليَخْبُر علمهم ويستفيد منه ، وكان يناظر العلماء الذين يخالفونه في الرأي .

وكان للشافعي كثير من التلاميذ بمصر ، منهم محمد بن أعْيَن بن ليث المتوفى سنة ٢٦٨ مؤلف كتاب السنن على مذهب الشافعي ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفي المتوفى سنة ٢٦٤ . وكان الشافعي يقول عنه ، مارأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى ، ومنهم اسماعيل بن يحيى المزني (توفي سنة ٢٦٤) وكان يعتبر أعلم الشافعية في عصره ، وله مؤلفات عدة في مذهب الشافعي منها الجامع الكبير ، والجامع الصغير والمختصر ، والمختصر هذا أصل الكتب المؤلفة في مذهب الشافعي (١) .

---

(١) وفيات الأعيان ١/٧١ .

ومنهم أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطِي المتوفى سنة ٢٣١ ، وكان الشافعي يؤثره ويقدمه ، وله كتب منها المختصر الكبير ، وكتاب الفرائض ، وهو الذى جمع مارواه عن الشافعي فى كتاب الأم .

ومنهم الربيع بن سليمان الأزدى الجيزى المتوفى سنة ٢٥٦ (١) وهو الذي ينسب اليه جمع كتاب الأم وترتيبه بعد البويطى . وله سَمِيٌّ هو الربيع بن سيلمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى بالولاء (١٧٤ — ٢٧٠) كان تلميذا للشافعي ومقربا اليه ، وقد امتاز بكثرة مايحفظ ، وبالتثبت فيما يروى ، درس فى جامع الفسطاط ، ثم استدعاه أحمد بن طولون ليدرس فى مسجده .

وكان المحدثون من الأقطار المختلفة يرحلون الى مصر ليأخذوا عنه ، فروى عنه أبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم (٢) .

وهو أحد الذين درس عليهم الطبرى فقه الشافعي بمصر .

لزم المصريون مذهب مالك والشافعي ، لا يقبلون غيرهما ، الى حوالى سنة ١٦٤ هـ اذ ولى القضاء اسماعيل ابن اليسع الكندى ، وكان حنفى المذهب ، فكرهه المصريون، وكتب الليث بن سعد الى الخليفة يطلب عزله فعزله .

واشتهر بعده بالترويج لمذهب أبى حنيفة القاضى بكار

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٨٦ .

(٢) ظهر الاسلام ١/١٦١ وحسن المحاضرة ١/١٦٢ .

المتوفى سنة ٢٧٠ ، كان يحدث بالمسجد الجامع ، وكان أحمد ابن طولون يتردد على مجلسه .

ثم ظهـر امام الحنفيـة بمصر ، والمنافح عن آرائهم ، أبو جعفر الطحاوى [١] (٢٣٩ — ٣٢١) وهو عربى الأصل من الأزد الذين نزلوا بالصعيد ، سمع من الشافعى ، وتفقه على خاله المزنى صاحب الشافعى ، لكنه تحول الى مذهب أبى حنيفة اذ درسه على من كان بمصر من العلماء ، وعلى من وفدوا اليها من الغرباء .

وله عدة مؤلفات منها : معانى الآثار ، وأحكام القرآن ، وكتاب اختلاف العلماء ، وكتاب فى الشروط ، والمختصر فى الفقه الذى شرحه كثير من العلماء [٢] .

وقد كانت هذه المذاهب تتنافس فى مصر ، ثم تتزاحم وتخرج أحيانا عن الاعتدال ، فانه لما قدم الشافعى الى مصر ونافس بمذهبه مذهب مالك ، حمل بعض العلماء المالكية بمصر على الشافعى .

ويظهر أن أصحاب مالك والشافعى كانوا يشتبكون فى معارك ، ذكر ابن سعيد أن المالكية والشافعية عاودوا القتال فى المسجد الجامع العتيق سنة ٣٢٦ ، فلما اشتد قتالهم أرسل الاخشيد ، ونزع حصرهم ومساندهم ، وأغلق الجامع ، فلا

---

(١) نسبة الى طحا من بلاد المنيا بالوجه القبلى .

(٢) حسن المحاضرة ١/١٦٤ وظهر الاسلام ١/١٦٢ .

يفتح الا فى أوقات الصلوات ، ثم سئل فيهم فردهم [١]

وبلغ من منافسة المذاهب فى مصر أنه اذا ماتولى قاض من مذهب كان يكيد لأصحاب المذاهب الأخرى .

ويتبين من تتبع الفقه بمصر أن الغلبة كانت لمذهبَى مالك والشافعى الى القرن الرابع ، وأن المذهب الحنفى كان قليل الأتباع ، ولكن الدولة أيدته منذ حكم الاخشيديون مصر .

أما المذهب الحنبلى والمذاهب الأخرى فلم يكن لها صوت ، لأن مذهب ابن حنبل كان بالعراق فى القرن الثالث ، ولم يتخط العراق الا فى القرن الرابع ، وفى ذلك الوقت كان الفاطميون يحكمون مصر ، وينشرون مذهبهم الشيعى ، ويضطهدون المذاهب الثلاثة الشائعة فى مصر ، وما زالوا يحكمون مصر الى القرن السادس ، فلما زال ملكهم رجعت المذاهب الثلاثة [٢] .

وعرفت مصر حينئذ مذهب الامام أحمد بن حنبل ، على أنه كان قليل الأتباع بالقياس الى المذاهب الثلاثة وفقهائها .

— ٢ —

وكان لمصر فى تفسير القرآن الكريم شأن .

فقد ذكر الامام أحمد بن حنبل أن بمصر صحيفة (رسالة ,

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ٢٤/٤ .

(٢) حسن المحاضرة ٢٠٥/١ .

فى التفسير) رواها على بن طلحة الهاشمى ، وهو طريق جيد فى الرواية عن ابن عباس ، لو رحل رجل الى مصر ليطلع عليها ماكان هذا كثيرا (١) .

وكثيرا ما اعتمد الطبرى والبخارى وغيرهما على هذه الرسالة فيما نسبوه الى ابن عباس (٢)

واذ كانت صلة التفسير وثيقة بالقراءات والنحو ، كان أوائل المفسرين فى مصر من النحاة والقراء .

من هؤلاء المفسرين محمد بن موسى الواسطى المتوفى سنة ٣٢٠ كان من علماء اللغة والتفسير الوافدين على مصر (٣) .

ومنهم أبو جعفر النحاس النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٧ ، وله عدة مؤلفات ، منها تفسير القرآن ، واعراب القرآن .

ومنهم أبو بكر الأدفوى المتوفى سنة ٣٨٨ المفسر المقرىء ، صحب أبا جعفر النحاس ولازمه ، وله كتاب فى تفسير القرآن فى مائة وعشرين مجلدا ، وقد ذكر الذهبى أن القاضى الفاضل كان يملك نسخة منه .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن ٢/ ٣٢١ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٥/٣٥٣ ومذاهب التفسير الاسلامى ٩٨ جولد تسيهر ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

(٣) بغية الوعاة ١٠٩ .

وكانت مصر فى تلك الحقبة حفية بالقراءات ، ثرية بالقراء قبل أن يقدم الطبرى اليها ، وفى سنوات مقامه بها .

كانت قراءة نافع قد ذاعت بمصر واستقرت ، بعد أن اختطت الى مصر عدة طرق ، فقد قدم نافع الى مصر ، وأقام بها زمنا طويلا ، اذ أرسله عمر بن عبد العزيز ليعلم الناس السنن (١) .

وكان أبو ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة المتوفى سنة ١٨٨ من أول الذين أقرأوا فى مصر برواية نافع ، قبل أن ينتصف القرن الثانى . كذلك ساهم فى نقل قراءة نافع الى مصر سِقلاب بن شُنَيْنَة أبو سعيد المصرى ، لأنه سمع من نافع نفسه بالمدينة (٢)

لكن أعظم مصدر لقراءة نافع كان عثمان بن سعيد ابن عدى بن غَزْوان بن داود بن سابق (١١٠ — ١٩٧) وهو مصرى الأصل ، رحل الى المدينة فقرأ على نافع سنة ١٥٥ ، ثم رجع الى مصر وجعل يقرىء برواية أستاذه الى أن توفى (٣) .

وعثمان هذا هو الذى لقبه نافع بورَش ، لشدة بياضه ، لأن الورش من معانيه البياض .

وكان سقلاب معاصرا له ، لكن ورشا كان أعظم تلاميذ

---

(١) حسن المحاضرة ١/١٣٣ .
(٢) المرجع السابق ١/٢٣٠ .
(٣) حسن المحاضرة ١/٢٣٠ ومعجم الأدباء ٥/٣٣ .

نافع شهرة ، وأبرزهم فى تمثيل قراءة أستاذه ، وأكثرهم أتباعا وتلاميذ ، وحسبنا أن نمثل لتلاميذه بأبى يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو بن يسار المصرى ، الذى خلفه فى الاقراء ، وذاعت شهرته فى مصر والمغرب ، حتى ان المصريين والمغاربة لم يكونوا يعرفون من القراء الا ورشا وأبا يعقوب.

وقد توفى أبو يعقوب سنة ٢٤٠ .

ولم ينفرد عن ورش الا بتغليظ اللامات وترقيق الراءات [١] .

ثم اشتهر بالقراءات أبو بكر الأدفوى النحوى المفسر المتوفى سنة ٣٨٨ ، وقد انفرد بقراءة نافع مع سعة علم وبراعة فهم ، وتمكن من العربية ، وهو مؤلف كتاب (الاستغناء فى علم القراءات)

— ٤ —

وقد ساهمت مصر بجهد حميد فى الدراسات اللغوية والنحوية فى تلك الحقبة ، فكان من علمائها ابن ولاد أحمد ابن محمد بن الوليد المتوفى سنة ٣٣٢ وهو مصرى من تميم، وصفه المبرد بأنه شيخ الديار المصرية فى العربية .

درس النحو ببغداد على الزجاج ، ثم جاء الى مصر ينشر مذهب العراقيين فى النحو ، وألف كتابه الانتصار لسيبويه ، وكتابه المقصور والممدود .

(١) حسن المحاضرة ١/٢٣١ .

ومنهم أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ وهو مصرى عربى الأصل من قبيلة مراد .

تعلم النحو بالعراق ، وكان معاصرا لابن ولاد ، وزميلا له بالعراق ومصر ، وله مؤلفات منها ، اعراب القرآن ، ومعانى القرآن ، والمبهج فى اختلاف البصريين والكوفيين ، وشرح المعلقات ، وشرح المفضليات .

ومنهم أبو بكر بن الحداد المتوفى سنة ٣٤٤ كان عالما بالقرآن والحديث واللغة والنحو وسير الجاهلية والشعر والنسب واختلاف الفقهاء ، وكان يدرس فى جامع الفسطاط ، ويلقب بفقيه مصر وعابدها وفصيحها [1] .

— ٥ —

أما التاريخ فقد اشتهر به كثير من أهل مصر ومن الوافدين عليها ، وكانت كتبهم مصادر للطبرى وغيره .

فمن الوافدين على مصر محمد بن اسحاق صاحب السيرة ، وقد التقى به الطبرى فى مصر ، ونقل عنه كثيرا فى كتابه تاريخ الأمم والملوك .

ومنهم أبو محمد عبد الملك بن هشام وهو من اليمن ، ونشأ بالبصرة ، ثم قدم الى مصر وأقام بها الى أن مات سنة ٢١٣ وقد التقى بالشافعى وتناشدا كثير من شعر العرب ،

---

(١) ظهر الاسلام ١/١٦٣ .

سمع من عبد الله بن وهب وعبد الله بن لهيعة ، وهو الذى لخص سيرة ابن اسحاق وهذبها .

ومن المؤرخين المصريين عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ كان من أهل الحديث والرواية والقصص والأخبار والتاريخ وهو مؤلف كتاب فتوح مصر.

كان ابن عبد الحكم من أقدم المؤرخين الذين بلغتنا كتبهم ، وكان يسجل ما يرويه عن ثقاة المصريين مثل والده عبد الله ، ويحيى بن بكير ، وعثمان بن صالح كاتب الليث ابن سعد .

وأخذ كثير من المصريين عنه مثل ابن قديد ، وعن ابن قديد هذا أخذ الكندى .

وقد قسم ابن عبد الحكم كتابه الى سبعة أبواب ،تحدث فى أولها عن فضائل مصر وتاريخها القديم ، وتحدث فى الثانى عن فتح العرب لمصر ، وفى الثالث عن الخطط والقطائع ، وتحدث فى الرابع عن الادارة فى عهد عمرو بن العاص وابن أبى السرح ، وفى الخامس عن غزو شمالى افريقية والأندلس، وسرد فى السادس قضاة مصر الى سنة ٢٤٦ ، وذكر فى السابع الأحاديث التى رواها الصحابة الذين وفدوا الى مصر وهم اثنان وخمسون صحابيا .

ومن حق ابن عبد الحكم أن يعد أول مؤرخ عرض للخطط والأخائذ ، ومن حق المصريين أن ينسب اليهم السبق الى تناول هذا النوع من التاريخ الاسلامى ، فليس من

الصواب نسبة هذا الفن الى الكندى والقضاعى كما ذهب المقريزى (١) .

ومنهم عمار بن وَسِيمَة المتوفى سنة ٢٨٩ مؤلف التاريخ على نظام السنين ، ومنهم ابن يونس (٢٨١ — ٣٤٧) وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الاعلى ، عربى الأصل من بيت عرف بالحديث والفقه .

تثقف ابن يونس بالحديث والفقه ، وعنى بتاريخ مصر ، فقرأ ماكتبه ابن عبد الحكم وغيره ، ثم أرخ لحوادث مصر ورجالها ومن طرأ عليها من الغرباء .

ومنهم الكندى (٢٨٣ — ٣٥٠) وهو محمد بن يوسف، كان من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وثغورها وأعمالها ، أصله من كندة ، لكنه نشأ بمصر ومات بها .

ومن مؤلفاته ولاة مصر وقضاتها ، وهو كتاب معروف مشهور ، وألف كذلك فى خطط مصر ، وفى موالى مصر .

ثم جاء بعد مقدم الطبرى الى مصر المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ وأقام بالفسطاط نحو سنتين وتوفى بها .

وله مؤلفات كثيرة ومنهج فى التاريخ سديد .

---

(١) أدب مصر الاسلامية ٨٥ للدكتور محمد كامل حسين .

الفصل الثاني

شروق وغروب

— ١ —

ولد بآمل عاصمة اقليم طبرستان ، وأكبر مدينـة فى سهله ، وهى مدينة خرجت كثيرا من العلماء ، لكنهم ينسبون الى طبرستان ، فيقال لكل منهم الطبرى .

والاقليم الذى يشمله طبرستان متسـع ممتد ، تشـغل الجبال أكثر مساحته .

وقد سمى بهذا الاسم لأن سكان الجبال كثيرو الحروب، وأكثر أسلحتهم الأطبار ، فليس بينهم صعلوك ولا غنى ، ولا صغير ولا كبير الا وبيده الطبر ، فسميت بلادهم طبرستان أى بلاد الأطبار ، أو موضع الأطبار .

وهو اقليم كثير الميـاه ، متهدل الأشجـار ، متنوع الفاكهة ، قال أبو العلاء السَّرَوِى فى وصفه :

اذا الريح فيهـا جرت الريح أعجلت
فواختهـا فى الغصن أن تترنما (١)
فـكم طيرت فى الجـو وردا مدنرا
يقلبـه فيـه وورقا مدرهمـا

---

(١) الفواخت : جمع فاختة وهى نوع من الطيور .

وأشجـــار تفـــاح كأن ثمـــارها
عوارض أبكار يضـــاحكن مغـــرما
فان عقدتها الشمس فيها حسبتهـــا
خدودا على القضبـــان فذّاً وتوأما
ترى خطبـــاء الطير فوق غصونها
تبث على العشاق وجـــدا مكتما

بدأ سعيد بن العاص فتح الاقليم فى عهد عثمان بن عفان. فلما تولى معاوية بعث اليها مصقلة بن هبيرة ومعه عشرون ألف رجل ، فأوغل فيها ، لكن أهلها ترصدوا لهم فى المضايق، فقتلوا مصقلة وأكثر رجاله .

فكان المسلمون بعد ذلك اذا غزوا هذه البلاد تحفظوا وحذروا التوغل فيها .

فلما تولى يزيد بن المهلب خراسان فى أيام سـليمان بن عبد الملك سار حتى وصل الى طبرستان ، وقاتل أهلهـا ، فصالحوه ، ولم يزالوا يفون بصلحهم مرة ويغدرون أخرى الى أيام مروان بن محمد ، فانهم نقضوا عهدهم ، ومنعوا جزيتهم ، فوجه اليهم السفاح عاملا فصالحوه على مال ، ثم غدروا وقتلوا المسلمين فى خلافة المنصور ، فأرسل اليهم ثلاثة من قواده حاربوهم وانتصروا عليهم .

وفى أيام المأمون افتتحت جبال شروين من طبرستان ، وهى من أمنع الجبـال وأصعبهـا ، فولى المأمون على طبرستان المازيار بن قارون — وكان قد شـارك فى فتح

الجبال — وسماه محمدا ، فلم يزل واليا عليهـا حتى توفى المأمون ، فأقره المعتصم ولم يعزله ، لكنه بعد ست سنوات من ولاية المعتصم غدر وخالف ، فكتب المعتصم الى عبد الله ابن طاهر واليـه على المشرق (خراسـان والرى وقومس وجرجان) يأمره بمحاربته ، فلمـا قصدته جنود الخليفـة وجنود ابن طاهر سلم ، وحمل الى سرمن رآى سنة ٢٢٥ هـ فضرب بالسياط بين أيدى المعتصم حتى مات .

ثم وليها بعد عبد الله بن طاهر ابنه طاهر ، وخلفه عليها أخـوه سليمان ، فخرج عليـه الحسن بن زيد العـلوى سنة ٢٤٩ فأخرجه عنها ، وغلب عليها الى أن مات ، وخلفه أخوه محمد بن زيد (١)

— ٢ —

أما اسمه فمحمد وأما كنيته فأبو جعفر .

والمؤرخون متفقون فى نسبه حتى جده ، فهو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد ، لكنهم بعد ذلك مختلفون ، فيزيد هذا ابن كثير بن غالب فى رأى أكثرهم (٢) ، ولم يذكروا رأيا آخر ، وفى رأى آخرين أنه ابن خالد (٣) . ويظهر من عبارة

(١) معجم البلدان لياقوت مادة طبرستان .
(٢) معجم الأدباء لياقوت والأنساب للسـمعانى ٣٦٧ وطبقات المفسرين ٣٠ وانباه الرواة ٣/٨٩ وطبقات الشـافعية ٢/١٣٥ وتاريخ بغداد ٢/١٦٢ .
(٣) الفهرست ٢٣٤ ووفيات الأعيان ٣/٣٣٢ .

ابن خلكان أنه يعتقد صحة هـذا النسب ، ويضعف الرأى الآخر .

على أن أبا جعفر نفسه لم يكن يزيد فى نسبه اسما آخر على أبيه ، فقد سأل سائل عن نسبه فقال : محمد بن جرير . قال السائل : زدنا فى النسب ، فأنشده بيت رؤية بن العجاج:

قد رفع العجـاج ذكرى فادعنى
باسمى اذا الأنسـاب طالت يكفنى

— ٣ —

ولد فى آخـر سـنة ٢٢٤ أو فى مطلع سـنة ٢٢٥ هـ (٨٣٩ م) وقد سأله القاضى ابن كامل أحد تلاميذه الذين أرخوا له : كيف وقع لك الشك فى سنة مولدك ؟ فقـال أبو جعفر : كان أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين ، فأرخ مولدى بحادث كان فى البلد ، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون ، قال بعضهم : كان ذلك فى آخر سنة أربع وعشرين ومائتين . وقال آخرون : بل كان فى أول سنة خمس وعشرين ومائتين [١]

(١) معجم البلدان ١٨ وطبقات الشافعية ١٣٥/٢ ولسان الميزان ١٠٢/٥ .

وكانت وفاته ببغداد يوم ٢٦ من شوال سنة ٣١٠ هـ(١) فى عصر الخليفة العباسى المقتدر بالله .

ويبدو أن مؤرخيه يستبعدون ماقيل عن وفاته فى سنة ٣١١ أو ٣١٦ هـ (٢)

وهم مجمعون على أن وفاته كانت ببغداد ، اذ أنه دفن هنالك .

وقد ذكر ابن خلكان أنه رأى بمصر فى القرافة الصغرى عند سفح المقطم قبرا يزار ، وعند رأسه حجر مكتوب عليه (هذا قبر ابن جرير الطبرى) والناس يقولون انه صاحب التاريخ المشهور ، ثم قال : ان هـــذا ليس بصحيح ، بل الصحيح أنه دفن ببغداد ، وكذلك قال ابن يونس فى تاريخه المختص بالغرباء (٣)

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٤٠ ، ٤٨ وانباء الرواة ٣/ ٩٠ ووفيات الأعيان ٣/٣٣٢ وطبقـــات الشافعية ٢/١٣٨ وتاريخ بغـــداد ٢/١٦٦ والأنساب ٣٦٧ ولســـان الميزان ٥/ ١٠٠ وطبقـــات المفسرين ٣١ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/٩٤ وانباه الرواة ٣/ ٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٢ .

الفصل الثالث

بين ينابيع الثقافة

— ١ —

لم يكد أبو جعفر يبلغ السن التى تؤهله للتعلم حتى يعهد به والده الى علماء (آمل) ، وسرعان ما يتفتح عقله وتبدو عليه مخايل النبوغ وهو حدث ، فقد قال انى حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا فى التاسعة (١) .

وكان هذا النبوغ المبكر حافزا لأبيه على الجد فى اكمال تعليمه ، وبخاصة أنه رأى حلما تفاءل من تأويله ، قال الطبرى : رأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعى مخلاة مملوءة بالأحجار ، وأنا أرمى بين يديه .

وقص رؤياه على المعبّر فقال له : ان ابنك ان كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته . فحرص أبى على معونتى على طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صغير (٢) .

وأغلب الظن أن والده لم يحبس هذه الرؤيا فى نفسه، بل أخبر بها ابنه الصغير ، ولعله أخبره بها مرات ، فكانت

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٩ .

(٢) المرجع السابق .

هذه البشارة من حوافز أبى جعفر الى الاجتهـاد فى طلب العـلم ، والدأب النشيط فى الاستزادة من ينابيعه ، ثم الكد المتصل فى التدريس والتأليف طيلة حياته .

— ٢ —

ها هو ذا يقضى سنوات فى « آمل » تزيده الى المعرفة ظمأ ، فيتنقل بين مدن طبرسـتان وغيرها من بلاد الفـرس، يستقى من ينابيعها ما يبرد غلته ، فيبدأ بالسفر الى الرىّ وما جاورها ، ليأخذ الحديث عن محمد بن حميد الرازى ، والمثنى بن ابراهيم الأبلى . ويقـول : كنـا نكتب عن ابن حميد ، فيخرج الينا فى الليل مرات ، ويسألنا عما كتبناه ، ويقرؤه علينا .

وفى هذه المنطقة يدرس التاريخ على محمد بن أحمد ابن حمـاد الدولابى مع حرص شـديد على مجالس ابن حميد ، قال : كنا نمضى الى أحمـد بن حمـاد الدولابى ، وكان فى قرية من قرى الرى ، ثم نعدو كالمجـانين ، حتى نعود الى ابن حميد فنلحق مجلسه . ويقال انه كتب عنه أكثر من مائة ألف حديث .

على أنه درس عليه التفسير أيضا ، وأخـذ فقـه أهل العراق عن أبى مقاتل بالرى ، فاذا ما ارتوى من هـذه الينابيع أحس بظمأ جديد الى مناهل أخرى .

فالى أين يقصد ؟

يشخص الى بغداد ، ليسمع من عالمها أحمد بن حنبل ، ويمنى نفسه وهو فى طريقه بأنه سيتلقى من الامام المحدث الفقيه ، لكن الأقدار لم تحقق له ماكان يأمله ، اذ توفى ابن حنبل قبل أن يصل أبو جعفر الى بغداد ، ويعلم بوفاته وهو على مقربة منها ، فينصرف عنها ، ولا يفكر فى أن يعود الى بلده ، فيتجه الى البصرة ، ويسمع من علمائها . يسمع من محمد بن موسى الحَرَشِى ، وعماد بن موسى القزار ، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، وبشر بن معاذ ، ومحمد بن بشار المعروف ببُنْدار ، وأبى الأشعث ، ومحمد بن المعَلّى ، وغيرهم .

ثم ينتقل الى واسط فيسمع من بعض شيوخها .

ويحدوه الكلف بالمعرفة الى أن يرحل الى الكوفة ، فيكتب الحديث عن هناد بن السرى ، واسماعيل بن موسى ، وأبى كَرِيب محمد بن العلاء الهمدانى ، ويأخذ القراءات عن سليمان الطلحى .

ويتبين زملاؤه فى الكوفة أنه أقدرهم وأحفظهم ، ثم يتبين أبو كريب أن الطبرى أنبههم ، فقد كان أبو كريب من كبار علماء الحديث ، لكن كانت فيه شراسة وشدة ، وقد وصف الطبرى لقاءه لتلاميذه مرة فقال : حضرت الى داره مع طلاب الحديث ، فاطلع من باب خوخة له ،

وطلاب الحديث يلتمسون الدخول ويصيحون ، فقال : أيكم يحفظ ماكتبه عنى ؟

فالتفت بعضهم الى بعض ، ثم نظروا الى وقالوا : أنت تحفظ ماكتبت عنه ؟ قلت : نعم . قالوا : هذا ، فاسأله . فقلت : حدثنا فى كذا بكذا ، وفى يوم كذا بكذا.

فأخذ أبو كريب يسألنى الى أن عظمت فى نفسه ، فقال لى : ادخل الى . فدخلت ، فمكننى من حديثه .

ويقال إنه سمع من أبى كريب أكثر من مائة ألف حديث .

هل يقنع الطالب النهم بما حصل فى الرى والبصرة وواسط والكوفة ؟ لا . ولعل هذه الدراسة قد زادته الى العلم شوقا ، وزادته به كلفا .

لقد كان يريد بغداد ليدرس على ابن حنبل ، فانصرف عنها لما علم بموته ، ولم يدخلها .

— ٤ —

فلماذا لا يتجه اليها الآن ، وفيها من جلة العلماء من يروون ظمأه أو بعض ظمئه الى المعرفة ؟

وسرعان مايندفع الى بغداد ، فيدرس القراءات على أحمد بن يوسف التغلبى ، ويتلقى فقه الشافعى عن الحسن ابن محمد الصباح الزعفرانى ، وعن أبى سعيد الاصطخرى .

فهل آن لهذا الظمآن أن يرتوى ، فلا يرتحل الى ينابيع أخرى ؟

ان هذا بعيد ، لأن العطاش الى المعارف لا يرتوون مهما ينهلوا ، ولعلهم كلما نهلوا استطابوا العلم فازدادوا اليه ظمأ ، واحتملوا فى سبيله نصبا .

فعلام يعتزم أبو جعفر ؟

انه يعتزم رحلة طويلة الى بلد بعيد تهفو اليه نفسه . فليتجه الى مصر ليستقى من مناهلها التى طالما سمع بها .

— ٥ —

لكن شوقه الى المعرفة يعرج به الى الشام ، فيقيم فى بيروت مدة يلقى فيها العباس بن الوليد البيروتى المقرىء، ويقرأ عليه القرآن كله برواية الشاميين .

— ٦ —

فاذا ماقضى من الشام حاجته اندفع الى مصر ، فوصل اليها سنة ٢٥٣ فى أوائل عهد أحمد بن طولون (١) .

أقام مدة بالفسطاط ، ثم عَنَّ له أن يعود الى الشام ، فلما قضى من هناك أربا علميا رجع الى مصر سنة ٢٥٦ (٨٧٠ م) .

ولقد كانت مصر حينئذ ثرية بعلمائها الذين استسقاهم الطبرى .

(١) قامت الدوله الطولونية بمصر من ٢٤٥ الى ٢٩٢ هـ .

ها هو ذا يدرس فى مصر فقه الشافعى على الربيع بن سليمان المرادى ، واسماعيل بن ابراهيم المزنى ، ومحمد ابن عبد الله بن الحكم ، وأخيه عبد الرحمن ، ويدرس فقه مالك على تلاميذ ابن وهب .

ويلقى يونس بن عبد الأعلى الصّدفى ، فيأخذ عنه قراءة حمزة وورش . وكان بمصر وقت دخوله اليها أبو الحسن على بن سراج المصرى ، وكان متأدبا فاضلا ، يقصد من دخل الفسطاط من أهل العلم ، فلما ظهرت شهرة الطبرى بمصر ، وبان فضله وعلمه بالقرآن واللغة والحديث والفقه والنحو والشعر ، لقيه أبو الحسن بن سراج ، فوجده واسع المعرفة ، سديد الجواب فى كل ماسأله عنه .

فسأله عن شعر الطرماح بن حكيم ، ولم يكن فى مصر من يحفظه ، فوجد الطبرى يحفظه ، فسأله أن يمليه ويفسر غريبه ، فأخذ يمليه عند بيت المال فى الجامع .

ثم يناقش المزنى — بعد أن درس عليه فقه الشافعى — فى عدة مسائل ، منها الكلام فى الاجماع ، وكان الطبرى قد اختار من مذاهب الفقهاء قولا اجتهد فيه ، بعد أن كان تفقهه فى بغداد على مذهب الشافعى ، وبعد أن درسه بمصر .

وقد سأله أبو بكر أحمد بن كامل فيما بعد عن المسألة التى تناظر فيها هو والمزنى فلم يذكرها ، لأنه كما قال

ابن كامل : كان أفضل من أن يرفع نفسه ، وأن يذكر تفوقه على خصم فى مسألة [1] .

ويشاء حظه المواتى أن يجتمع فى مصر بمحمد بن اسحاق بن خزيمة ، وأن يقرأ كتابه فى السيرة ، ثم يعتمد عليه فى مصادر تاريخه .

وقد اجتمع بمصر فى ذلك الوقت أربعة من العلماء الوافدين اسم كل منهم محمد ، هم محمد بن جرير الطبرى ، ومحمد ابن اسحاق ، ومحمد بن نصر المروزى ، ومحمد بن هارون الرثويانى [2] وقد أبى الخيال الا أن يزخرف من اجتماعهم بمصر أسطورة تنبىء عن نبل أخلاقهم ، وطهارة نفوسهم ، وتدل على تقدير الحاكم للعلم والعلماء .

ذكر ياقوت نقلا عن كتاب السمعانى [3] وذكر الخطيب البغدادى فى ترجمته لمحمد بن حرب [4] . أن الرحلة جمعت بين أولئك المحمدين بمصر ، فأرملوا وافتقروا ، ولم يبق عندهم مايمونهم ، ولحق بهم الضرر ، فاجتمعوا ليلة فى منزل كانوا يأوون اليه ، واتفقوا على أن يستهموا — يقترعوا — فمن خرجت عليه القرعة سأله

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٤ .

(٢) نسبة الى رويان ، مدينة كبيرة من جبال طبرستان .

(٣) معجم الأدباء ١٨/٤٦ .

(٤) تاريخ بغداد ٢/١٦٥ .

الناس لأصحابه الطعام . فخرجت القرعة على محمد بن اسحاق ، فقال لأصحابه : أمهلونى حتى أتوضأ ، وأصلى صلاة الخيرة . فاندفع بالصلاة ، فاذا هم بالشموع وخصى من قبل والى مصر يدق عليهم الباب ، ففتحوا له ، فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل له : هـذا ، وأشاروا اليـه . فأخرج صرة فيها خمسون دينارا ، ودفعها اليه .

ثم قال : أيكم محمد بن جرير ؟ فأشاروا اليه ، فدفع اليه خمسين دينارا .

ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقيل له هذا ، فدفع اليه مثلها .

ثم قال : وأيكم محمد بن اسحاق ؟ فقالوا : هـو ذا يصلى . فلما فرغ من صلاته دفع اليه صرة فيها خمسون دينارا .

ثم قال لهم : ان الأمير كان فى قيلولتـه ، فرأى فى النوم طيفا يقول له : ان المحامد اشتد بهم الجوع ، فبعث بهذه الصرر ، وهو يقسم عليكم اذا نفدت أن تبعثوا اليه ليزيدكم .

— ٧ —

ويظهر أن الحنين الى بغداد عاوده فقصد اليها .

لكنه لم يلبث أن اتجه الى طبرستان ، وكانت هـذه زورته الأولى لها منذ أن فارقها فى طلب العلم .

فقضى بها مدة رجع بعدها الى بغـداد ، ثم عاد الى طبرستان مرة ثانية سنة ٢٩٠ هـ

لكن بغداد أبت الا أن تجتذبه ، فعاد اليها وأقام بها ، وانقطع للتدريس والتأليف الى أن ودع الحياة

— ٨ —

ويظهر من تتبع أساتذته أنه تلقى على الكبار من علمـاء عصره ، وسمع من الشيوخ الثقاة الذين مر ذكر بعضهم .

وهناك كثير غيرهم من أصحاب الأسانيد العاليـة بمصر والشام وبغداد والكوفة والبصرة والرى [1] .

فقد تلقى القراءات على سليمان بن عبد الرحمن بن حماد (خلاد) الطلحى ، وكان الطلحى قد قرأ على خلاد ، وخلاد قرأ على سليم بن عيسى ، وسليم قرأ على حمزة . وتلقـاها كذلك عن يونس بن عبد الأعلى ، عن على بن كَيْسَة ، عن سُلَيْم بن حمزة .

وذكر ابن كامل أن الطبرى كانت عنده رواية ورش عن نافع عن يونس بن عبد الأعلى .

---

(١) معجم الأدباء ١٨ وطبقات الشافعية ٢/١٣٥ والفهرست ٢٣٤ والأنساب للسمعانى ٣٦٧ .

الفصل الرابع

معالم شخصيته

لقد نستطيع تقريب الشخصية الى الادراك اذ نعرفها بأنها مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التى يتصف بها الانسان ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة .

وهو بهذه الصفات كثيرا ما يتميز من غيره .

وهذه الشخصية توهب بالفطرة ، وتكتسب بالتربية ، ولكن الفطرية أقوى من المكتسبة .

على أن الشخصية لو كانت هبة طبيعية فحسب لكنا ضحايا الظروف ، ولفقدت التربية أثرها فى بناء العظماء من رجال الدين والأدب والعلم والفن .

وللشخصية عناصر أساسية تقوم عليها ، منها : الجاذبية ، والذكاء ، والمشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وقوة البيان ، والثقة بالنفس ، والاعتماد عليها ، واعتدال المزاج ، والمظهر العام للجسم ، وحسن الهندام[1] .

وسيتضح من دراسة شخصية الطبرى أنه كان يتصف بما تتطلبه الشخصية المكتملة من مزايا خلقية وعقلية .

---

(١) فى علم النفس ٣/ ٣٧٠

صفاته الجسدية

لم يكن المؤرخون القدامى يعنون بالأوصاف الجسمية ، لأنها لم تكن فى رأيهم وثيقة العلاقة بالشخصية التى يؤرخون لهـا .

لهذا لا نستطيع أن نحصل على وصف كامل دقيق لأبى جعفر ، يعيننا على رسم عام لصفاته الجسمية .

على أنهم خلفوا لنا بعض ملامح ، نستطيع أن نتصور منها بعض أوصافه الجسدية (١) .

كان الطبرى مديد القامة ، نحيف الجسم ، أسمر اللون إلى الادْمة ، واسع العينين ، كبير اللحية ، توفى ولم يمتلىء رأسه بالشيب ، وسواد لحيته غالب على البياض .

وكان لا يأكل من الخبز الا السّميـذ ، لأنه من قمح مغسـول ، اذ كان من مذهبه أن الشمس والنـار والريح لا تطهر نجسا .

وكان ربما أكل الحِصْرِم فى وقته ، وربما أكل من العنب الرازقى ، والتين الوزيرى ، والرطب ، وربما جىء له بلبن من غنم ترعى ، فيصفى ويجعل فى قدر على النار حتى يذهب

(١) تاريخ بغداد ١٦٦/٢ ومعجم الأدباء ١٨ فى مواضـع متفرقة وطبقات الشافعية ١٣٨/٢ .

منه جزء ، ثم يثرد فى الاناء ، ويصب اللبن الحار على الثريد ، ويدعه حتى يبرد ، ويطرح عليه الصعتر[1] وحبة السوداء[2] والزيت .

فاذا أكل نام فى قميص من نسيج يشبه الكتان ، قصير الأكمام ، مصبوغ بالصندل وماء الورد .

وأرجح أنه لم يكن سليم المعدة أو الكبد ، لأنه كان لا يأكل اللحم الدسم ، بل يأكل اللحم الأحمر الصرف ، ولا يطبخه الا بالزبيب ، اذ كان يعتقد أن السمين يلطخ المعدة .

كذلك كان يتجنب الثلج والسمسم والشهد والتمر .

وقد يدهشنا امتناعه عن التمر والشهد ، وزعمه أنهما يفسدان المعدة ، ويغيران النكهة ، وزعمه أن التمر يلطخ المعدة ، ويضعف البصر ويفسد الأسنان ، ويفعل فى اللحم كذا وكذا .

وله فى هذا المجال رد لطيف على أبى على الصواف ، ذلك أن الصواف قال له : أنا آكل التمر طول عمرى ، ولا أرى منه الا خيرا . فقال أبو جعفر : وما بقى على التمر أن يعمل بك أكثر مما عمل ؟ وكان الصواف قد سقطت أسنانه، وضعف بصره ، ونحف جسمه ، وكثر اصفراره [3] .

---

(١) الصعتر بالصاد والسين نبات طيب الرائحة زهره أبيض مغبر بذر أصغر من بذر الريحان .

(٢) هى المعروفة الآن بحبة البركة .

(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٩٠ .

ومع هذا التحرز كان الطبرى يكثر من العقاقير الهاضمة، ويكثر من الأدوية ، وبخاصة الاسفيداج والزيرباج [1] .

قال أبو بكر بن مجاهد : كان أبو جعفر يخرج الى الصحراء فنخرج معه ، فدعانا يوما أبو الطيب بن المغيرة الثلاج — وكان جارا لأبى جعفر فى محلة ببغداد — وأطعمنا فولا ، فأكلنا وأكل أبو جعفر حتى امتلأ ، ورأينا من انبساطه وحسن صحبته أمرا عظيما ، ثم انصرفنا ، فذهبت اليه لأعرف حاله بعد الأكلة ، فاذا بين يديه أدوية وجوارشنات [2] يتعاطى منها ، ليدفع ضرر ما أكله .

وكان أبو القاسم سليمان بن فهد الموصلى يهدى اليه العسل فيقبله منه ، فلما مات أبو جعفر وجدوا عنده احدى عشر جرة عسلا ، بعضها قد نقص منه .

وكان مريضا بذات الجنب ، تعتاده وتنتقض عليه .

ويظهر أن معرفته بالطب واعتلال صحته مرناه على تطبيب نفسه ، فقد وجه اليه على ابن عيسى طبيبا ، فسأله عن حاله ، فعرفه بما يشكو منه ، وأخبره بما تعاطاه الى يومه ، وما يعتزم أن يتعاطاه من اليوم ، فقال له الطبيب : ليس عندى شيء فوق ماوصفته لنفسك ، والله لو كنت فى ملتنا لعددت

---

(١) الاسفيداج : رماد الرصاص والآنك · الزيرباج : دواء بالفارسية ·

(٢) الجوارشن : دواء هاضم للطعام عذب طيب الرائحة ، فارسى معرب ·

من الحواريين [1] . ثم عاد الطبيب الى على بن عيسى ، فقص عليه أمر الطبرى ، فأعجبه [2] .

ويدهشنا فى هذا الصدد أن نقرأ فى تاريخه تطبيبا عجيبا لغيره ، لا ندرى كيف اطمأن هو الى نفعه ، فقد تحدث أبو العباس بن المغيرة الثلاج قال : اعتل ابنى أبو الفرج ؛ وكان ابنى حسن الأدب، ويتفقه على مذهب أبى جعفر . فقال لى أبو جعفر : تقبل منى ما أصفه لك ؟ فقلت : نعم . وكنت أتبرك بقوله ورأيه . قال : احلق رأسه ، واعمل له جوذابة [3] سمينة من رقاق ، وأكثر دسمها ، وقدمها اليه ، وأطعمه منها حتى يمتلىء شبعا ، ثم خذ ما بقى فاطرحه على رأسه ، واحرص أن ينام على حاله تلك ، فانه يبرأ ان شاء الله . ففعلت ما أشار به فبرىء ابنى [4] .

(١) رسل المسيح عليه السلام .

(٢) معجم الأدباء ١٨/٩٤ .

(٣) ملة تخبر فى التنور وعليها طائر او لحم مشوى فيقطر عليها ودكه .

(٤) معجم الأدباء ١٨/٩٣ .

صفاته الخلقية والنفسية (١)

فاذا ما تعقبنا تاريخه لنتعرف صفاته الخلقية والنفسية ، لم نستطع أن نجد مايعيننا على رسم صـــورة كاملة ، لأن المصادر التى نعتمد عليها لا تسعفنا بذلك .

وحسبنا أن نعرض بعض ماتميز به ، مما سجله تلاميذه ومعاصروه ، ومما نستنبطه من أخباره ومعاملاته وصلاته ، لتكون كالدليل الى مالا نعلمه .

١ ـ ورعه

كان أبوه ورعا تقيا متصوفا ، وكذلك اشتهر ابنه بالورع والتقوى والزهادة فى الدنيا .

وليس معنى هذا أنه ورث هذه الصفات ، لأنها ممـا لا يورث ، بل معنـــاه أن تأثره بأبيه ، ومحـاكاته له من الأسباب التى حببت اليه الورع والزهادة والاستغناء بمـا يرد اليه من حصته فى مزرعة خلفها له أبوه بطبرستان (١) .

ووصفه عبد العزيز الطبرى بأنه كان شـــديد التوقى والحذر مما ينافى التدين والورع ، وكان على قسط عظيم من

(١) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

النزاهة ، واستدل على هذا بما أودعه كتابه (آداب النفوس). فهو اذا ممن يأخذون أنفسهم بالدعوة الى الفضائل ، وتطبيق هذه الدعوة ، كما شهد تلميذه .

ومن مظاهر ورعه أنه كان مع اشتغاله بالتأليف والتدريس يحرص على قراءة قدر من القرآن الكريم اعتاد أن يقرأه .

وكانت قراءته للقرآن الكريم تجمع بين الترتيل الجيد الممثل للمعانى ، وبين الخشوع المصور للاجلال ، حتى لقد قال بعض سامعيه ، انه لم يكن يظن أن انسانا يحسن أن يقرأ هذه القراءة .

حدث أبو على الطومارى قال : كنت أحمل القنديل فى شهر رمضان بين يدى أبى بكر بن مجاهد لصلاة التراويح ، فخرج ليلة من ليالى العشر الأواخر من داره ، ومررنا على مسجده ، فاجتازه ولم يدخله ، وسار حتى وقف على باب مسجد الطبرى ، وكان الطبرى يقرأ سورة الرحمن ، فاستمع لقراءته طويلا ، ثم انصرف .

فقلت له : يا أستاذ تركت الناس ينتظرونك ، وجئت تسمع قراءة هذا ؟

فقال : يا أبا على ، دع عنك ، ماظننت أن الله خلق بشرا يحسن أن يقرأ هذه القراءة [١] .

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٤ وطبقات الشافعية ٢/١٣٧ ومعجم الأدباء ١٨ .

ووصفه عبد العزيز بن محمد الطبرى بأنه كان مجودا فى القراءة ، موصوفا بذلك ، يقصده القراء والبعداء من الناس ليصلوا خلفه ، ويسمعوا قراءته وتجويده [1]

ومن مظاهر ورعه أنه قال : استخرت الله تعالى فى عمل كتاب التفسير ، وسألته العون على مانويته ثلاث سنين ، قبل أن أعمله فأعاننى [2] .

ويصفه كثير من تلاميذه ومعاصريه بأنه كان زاهدا ، عازفا عن الدنيا ، مترفعا عن التماسها ، خاشعا ، أمينا ، تقيا ، ماسمعه أحد يحلف بالله عز وجل .

وقد عاش حياته أعزب عفيفا ، اذ كان — كما وصفه مَسْلَمَة بن قاسم — حصورا لا يعرف النساء ، شغله طلب العلم وهو ابن اثنتى عشر سنة ، ولم يزل طالبا للعلم ، مولعا به الى أن مات [3] .

وفى حديث للطبرى نفسه عن حياته بمصر قوله : وما حللت سراويلى على حرام ولا حلال قط [4] .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/٦٢ .

(٣) لسان الميزان ٥/١٠٢ .

(٤) معجم الأدباء ١٨/١٥٥ .

٢ — إبـاؤه

ينبىء تعقب أخلاقه فى جميع حالاته عن أنفة وعزة نفس واباء ، فلم يذل مرة ، ولم يستهن بكرامة نفسه مرة .

وانى لأستدل على ابائه منذ صغره من قوله : لما ترعرعت سمح لى أبى بالسفر من مدينة (آمل) وكان يبعث الى بالمال، فأبطأت على النفقـــة مرة ، فاضطررت الى أن فتقت كمى القميص فبعتهما (١) .

لقد كان يستطيع أن يقترض ، ثم يرد القرض بعد قليل من الأيام ، لكنه لم يفعل .

وكان يستطيع أن يلجأ الى ما كان يلجـأ اليه الطـلاب الغرباء فى عصره من الاستعانة بذوى الثراء أو محبى العلم ، لكنه آثر أن يبيع كمى قميصـــه ، لينفق من ثمنهمـا حتى توافيه نقود أبيه .

وقد لزمته هــذه الأنفة طيلة عمــره ، حتى كان يرفض الهدايا والمنح ، لأنه جرى على ألا يقبل هدية لا يستطيع أن يكافىء بمثلها ، فان كانت فوق طاقتـــه ردها واعتــذر الى مهديها .

وكثيرا ما رفض هدايا الوزراء والكبراء على تشوقهم الى أن يقبلها .

---

(١) طبقات الشافعيه ١٣٨/٢ .

وجه اليه أبو الهيجاء بن حمدان ثلاثة آلاف دينار ، فلما نظر اليها عجب منها ، ثم قال : لا أقبل مالا أقدر على المكافأة عنه ، ومن أين لى ما أكافىء به عن هذا ؟

فقيل له : ليس لهذا مكافأة ، انما أراد التقرب الى الله عز وجل .

فأبى أن يقبلها وردها .

وأهدى اليه جاره أبو المحسِّن المحرِّر فرخين ، فأهدى اليه الطبرى ثوبا . وأهدى اليه الوزير أبو على محمد بن عبيد الله رمانا ، فقبله ، وفرقه فى جيرانه .

فلما مضت أيام بعث اليه الوزير عشرة آلاف درهم ، ومعها رقعة يسأله فيها أن يقبل هديته ، وكان الوزير قد أخبر حامل الهدية أن يعرض على أبى جعفر ان لم يقبل الهدية أن يفرقها على أصحابه ممن يستحق . قال راوى الخبر : فصرت بالبدرة اليه ، فدققت الباب ، وكان يأنس الى ، وكان اذا دخل منزله بعد مجلس العلم لا يكاد يدخل اليه أحد الا فى أمر مهم ، لاشتغاله بالتصنيف .

فعرفته أنى جئت برسالة من الوزير ، فأذن لى ، فدخلت ، وأوصلت اليه الرقعة ، فقال : اقرأ عليه السلام ، وقل له : ارددنا الى الرمان . وامتنع من قبول الدراهم .

فقلت له : فرقها فى أصحابك على من يحتاج اليها ، ولا تردها . فقال : هو أعرف بالناس اذا أراد ذلك .

وأجاب عن الرقعة ، وانصرفت .

وبعد مدة جاءه مال ضيعته من طبرستان ومعه سَمُّور[1]، فأرسل السمور الى الوزير، وقوم بأربعين دينارا، فلم يجد الوزير بدا من قبوله. وكان هذا داعيا الى توقفه عن الاهداء الى أبى جعفر.

واستدعاه الوزير أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان لتأديب ابنه، وقرّبه ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير فى الشهر، واشترط عليه الطبرى ألا يعوقه ذلك عن أوقات طلب العلم ومدارسته، وأداء الصلاة فى مواعيدها، والطعام فى وقته، وخرج اليه الصبى، فلما جلس بين يديه كتب، فأخذ الخادم اللوح، ودخل به مستبشرا، فلم تبق جارية الا أهدت اليه صينية فيها دراهم ودنانير، فردها الطبرى، وقال: لقد شورطت على شيء، وما هذا لى بحق، وما آخذ غير ماشورطت عليه.

فعرّفت الجوارى الوزير بذلك فدخل اليه وقال: يا أبا جعفر، سررت أمهات الأولاد فى ولدهن، فبررنك، فغممتهن بردك الهدية. فقال له: لا أريد غير ماوافقتنى عليه[2]

وأراد الخليفة المكتفى أن يوقف وقفا تتفق آراء الفقهاء على صحته، ويسلم من الخلاف، فأجمع علماء عصره على أنه لا يقدر على ذلك الا ابن جرير، فاستدعى ابن جرير، فأملى عليهم كتابا فى ذلك، فأمر الخليفة له بجائزة سنية،

(١) حيوان برى يشبه السنور يتخذ من جلده فراء ثمينة
(٢) تاريخ ابن عساكر ١٨/٣٥٦ .

فأبى أن يقبلها . فقيل له : لا بد من جائزة أو قضاء حاجة . فقال : أسأل أمير المؤمنين أن يأمر الشرط بمنع السؤال من دخول المقصورة يوم الجمعة ، فنفذ الخليفة مشورته (١) .

ويبلغ به اباؤه أن يرفض ألف دينار قدمت اليه مكافأة على كتاب ألفه ، ولعله أنف من أن يتقاضى أجرا على عمل دينى قام به ، وآثر أن يحتسب عند الله ثوابه ، أو لعله فهم أنها هدية فى قالب مكافأة ، وهو قد أخذ نفسه بألا يقبل هدايا لا يستطيع الرد بأمثالها .

ذلك أن الوزير العباس بن الحسن طلب منه أن يؤلف له مختصرا فى الفقه ، فألف له كتاب (الخفيف) وأرسله اليه ، فبعث اليه الوزير ألف دينار ، فلم يقبلها . فقيل له : تصدق بها ، فلم يفعل (٢) .

واذ كانت الهدية فى رأيه يدا من المهدى ، لا يتقبلها الا اذا اقتدر على المجازاة بمثلها ، فانه كان يرى أن الصنيع يد لصانعه ، وجميل لابد من عرفانه وتقديره والمكافأة عليه .

قال عبد العزيز بن محمد الطبرى : أخبرنى غير واحد من أصحابنا أنه رأى عند الطبرى شيخا مسنا ، قام له الطبرى وأكرمه . ثم قال أبو جعفر : ان هذا الرجل لحق به من أجلى ما استوجب به علىّ كثيرا من الحقوق ، وذلك أنى دخلت طبرستان ، وقد شاع سب أبى بكر وعمر ، فسألونى

(١) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ وطبقات المفسرين ٣١ .
(٢) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

أن أملي فضائلهما ، ففعلت . وكان سلطان البلدة يكره ذلك ، فلما علم وجه الى يستدعيني ، فبادر هذا الشيخ وأرسل الى يخبرني أني مطلوب ، فغادرت البلد ولم يشعر بي أحد ، ووقع الشيخ في أيديهم ، فضربوه بسببي ألفا [1] .

ولم تكن الصلة الروحية التي تصل التلميذ بأستاذه لتصرف الطبري عن التزام خطته التي ارتضاها .

فقد كان من تلاميذه أبو الفرج بن أبي العباس الأصفهاني ، وكان يختلف اليه ، ويقرأ عليه كتبه ، فطلب منه الطبري حصيرا لصفة عنده صغيرة ، فصنع أبو الفرج الحصير ، وجاء به ، وهو يريد أن يقدمه الى أستاذه هدية صغيرة ، فدفع اليه الطبري أربعة دنانير ، فأبى أن يأخذها ، ورفض الطبري أن يقبل الحصير الا بهما [2] .

وله أبيات تصور أنفته التي وصفها تلاميذه ، وتصور رضاه بقلة المال ، بل سعادته بهذه القلة ، وايثاره ذلك على الغنى المشوب بمهانة النفس ، وهوان العزة :

اذا أعسرت لم يعلم شقيقي
وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي
ورفقي في مطالبتي رفيقي

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/٨٧ .

ولو أنى سمحت ببذل وجهى
لكنت الى الغنى سهل الطريق[1]

وهو يذم فى الغنى أن يكون مزهوا بغناه ، وفى الفقير أن تستذله الحاجة ، وينصح الأغنياء بألا يبطروا ، وينصح الفقراء بألا يذلوا :

خلقان لا أرضى طريقهما
تيه الغِنَى ومذلة الفقر
فاذا غنيت فلا تكن بطرا
واذا افتقرت فَتِهْ على الدهر[2]

٣ - جرأته فى الحق

لا غرابة فى أن يكون الطبرى شجاع القلب جريئا فى اعلان ما يعتقده حقا ، لأنه قد استكمل الأسباب التى تسلحه بهذه الجرأة من علم واسع ، وورع مشهود ، واباء مترفع ، واستهانة بالدنيا ومظاهرها .

لهذا كان ممن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، مع عظيم

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٦ ومعجم الأدباء ١٨/٤٣ ووفيات الأعيان ٣/٣٣٢ فى الأصول (فيستغنى صديقى) ولكنى رجحت « فيستعفى) .

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٦ ومعجم الأدباء ١٨ .

ما يلحق به من أذى الجهال واعتداء الحساد والحاقدين ، وشناعات الملاحدة (١) .

وقد عرض عليه القضاء فأبى أن يقبله ، ولقد يكون مبعث رفضه أنه جرىء فى الحق لا يراعى غير الله ، ومن شأن القاضى أن تعرض عليه منازعات يتصل بعضها بأمراء ذلك العصر وحكامه ، وهو لا يستطيع أن يمالىء أميرا ، أو يجامل وزيرا ، أو يحابى كبيرا ، فمن الخير له أن يكون بعيدا عن هذه المآزق ، وأن يفرغ للعلم والتأليف ، وتثقيف الطلاب ، ناعما بحريته وراحة ضميره .

وربما كان ورعه هو السبب فى رفضه ولاية المظالم ، مخافة أن يجور فى حكم من أحكامه ، كما رفض أبو حنيفة منصب القضاء من قبله .

وليس بمستبعد أنه رفض القضاء أنفة من أن يكون لحاكم ولاية عليه وسلطان .

ولعله امتنع من قبول القضاء لهذه الأسباب مجتمعة .

يذكرون أن الخاقانى لما تقلد الوزارة أرسل الى الطبرى مالا كثيرا ، فأبى أن يقبله ، فعرض عليه القضاء فامتنع ، فعاتبه أصحابه ، وقالوا له : لك فى هذا ثواب ، وتحيى سنة قد درست ، وطمعوا فى أن يقبل ولاية المظالم ، فانتهرهم وقال :

---

(١) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

قد كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك لنهيتمونى عنه [1] .

وكان تلاميذه من طبقات عدة ، لكنه كان جريئا عادلا فى التسوية بينهم ، لا يميز أحدا لحسبه أو جاه أبيه . قال أبو معبد عثمان بن أحمد الدينورى : حضرت مجلس الطبرى ، وحضر الفضل بن جعفر بن الفرات بن الوزير ، وقد سبقه رجل ، فقال الطبرى للرجل : ألا تقرأ ؟ فأشار الى ابن الوزير ، فقال له الطبرى : اذا كانت النوبة لك فلا تكترث بدجلة ولا الفرات .

وعلق الدينورى فى روايته على هذا الحادث بقوله : وهذه من لطائفه وبلاغته وعدم التفاته لأبناء الدنيا [2] . يريد أن هذه تورية لطيفة ، ومساواة عادلة بين رجل من عامة الشعب وآخر ابن وزير ، فى عهد كانت الطبقية فيه فيصلا بين الناس .

٤ — تواضعه

نعرف من حياة بعض العلماء الكبار والأدباء القادة أنهم كانوا يزهون بمعارفهم ، ويدلون بمكانتهم ، ويعتدون ذلك من مقومات شخصيتهم ، ومن مكملات المظهر ورفعة الشأن.

ونعرف فى كثير من العلماء والأدباء سماحة النفس ،

---

(١) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .
(٢) لسان الميزان ٥/١٠٣ .

ودماثة الخلق ، ورقة المعـاملة ، والتواضـع الذى لا يمس العظمة ، بل يعليها ويغليها .

وقد كان الطبرى من هؤلاء .

كان ورعا زاهدا فى الدنيا ، راغبا عما بأيدى الناس .

وكان عظيم الأنفة والاباء .

وكان واسع العلم غزير الثقافة .

وكان طائر الصيت ، كثير الأتباع .

فاستغنى بهذا كله عن الزهو والخيلاء .

لم يكن يرفض الدعوة التى يدعى اليها ، أو الوليمة التى يسأل فيها ، فاذا مضى الى منزل كان يوما مشـهودا عظيما بحضوره .

ولم يكن يرفض الخروج الى الصحراء مع بعض تلاميذه فيأكل معهم .

وكان لا يباهى بعلمه ، ولا يفاخر بظفره فى مناقشة أو مناظرة ، بل كان يتناسى ماحدث ، ويؤثر ألا يذكره .

تناظر هو واسماعيل بن ابراهيم المزنى فى مصر، وتناولت مناظرتهما أشياء منها الكلام فى الاجماع ، ثم سأله ابن كامل عن المسألة التى تناظرا فيها ، فلم يذكرها لأنه — كما قال ابن كامل — كان أفضل من أن يرفع نفسه ، وأن يذكر انتصاره على خصم . على أنه بعـد المنـاظرة كان يفضـل المزنى ، ويطريه ، ويشيد بتدينه ..

ومر بالدينور فى طريقه الى طبرستان ، فدعاه بعض أهل

العلم ودارت مناظرات ، زعم بعدها عبد الله بن حمدان أنه أغرب على الطبرى خمسة وثمانين حديثا ، وأغرب عليه الطبرى ثمانية عشر . لكن أبا بكر الدنيورى — وكان من العلماء والحفاظ للحديث — كذب ابن حمدان فى روايته ، فقال : لقد قدم الينا الطبرى ، فدعاه الكسائى ودعا معه أهل العلم ، وكنت حاضرا ومعنا ابن حمدان ، فأغرب الطبرى على ابن حمدان ثلاثة وثمانين حديثا ، وأغرب عليه ابن حمدان ثمانية عشر حديثا .

وكان ابن حمدان فيما أغرب به على الطبرى أقبح مما أغرب به الطبرى عليه ، لأن ابن حمدان كان اذا أغرب بحديث قال له الطبرى : هذا خطأ من جهة كذا ، ومثلى لا يذاكر به ، فيخجل ابن حمدان وينقطع (1)

وكان قد لزم داود بن على الأصبهانى ، وكتب من كتبه كثيرا ، ثم جرت مسألة يوما بين داود وأبى جعفر ، وتفوق أبو جعفر على داود ، فآلم ذلك أصحاب داود ، وكلم أحدهم أبا جعفر بكلمة ممضه ، فنهض من المجلس ، وألف كتابا فى الرد على داود ، سماه كتاب الرد على ذى الأسفار . يريد أن داود يعتمد على الكتب ولا يفكر .

أخرج من هذا الكتاب شيئا بعد شىء ، الى أن أخرج منه قطعة فى نحو مائة ورقة .

---

1) معجم الأدباء ٥٦/١٨ .

ثم كف بعد أن مات داود ، فلم يمل شيئا من هـــذا الكتاب .

وقد تحدث أبو بكر بن داود بن على قال : كان فى نفسى مما تكلم به ابن جرير على أبى ، فدخلت يوما على أبى بكر ابن أبى حامد ، وعنده أبو جعفر ، فقال له أبو بكر :

هذا أبو بكر محمد بن داود ابن على الأصبهانى ، فلما رآنى أبو جعفر وعرف مكانى رحب بى ، وأخذ يثنى على أبى ويمدحه ، ويصفنى بما قطعنى من كلامه [1] .

وكان يعطف على تلاميذه ، ويتواضع فى معاملتهم ، حبالهم ، وثقة من حبهم له .

ذكر ابن كامل [2] أن بعض تلاميــذ الطبرى آلمه فى مجلس الأستاذ ، فانقطع ابن كامل عن المجلس مدة ، ثم قابله الطبرى ، فجعل يعتذر له ويترضاه ، ويترفق به ، كأنه هو الذى آذاه . فرضى ابن كامل ، وعاد الى مجلس الطبرى.

٥ — مضاء عزيمته

أولع الطبرى بالعلم منذ حداثته الى أن أغمض عينيـــه آخر غمض .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٠ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/٥٤ .

وهبه أبوه للعلم ، ووهب نفسه للعـلم ، فأعطى العلم أعظم نصيب من وقته ومن جهده .

كانت عزيمته الماضيـة تتـأبى على الفتور والكلال ، فتسلحه بالصبر الحافز ، والجـد الدائب ، والنشـاط الموصول .

بهذه العزيمة طوف فى كثير من الأقطار والبلاد ، فسمع من كبار العلماء بطبرستان والعراق والشام ومصر .

وبهذه العزيمة قرأ كثيرا ، وحفظ كثيرا ، وألف كثيرا . وكان يستهين بالجهد المضنى ، ويستسهل الصعب المجهد ، ويظن أن تلاميذه يقدرون على ما يقدر عليه ، ويستطيعون أن يروضوا نفوسهم على مثل مايروض عليه نفسه ، فلما تبين أنهم يستطيلون الشوط ، ويستبعدون الغاية ، صارحهم بأسفه وبألمه من ضعف عزائمهم .

روى بعض تلاميـذه أنه قال لهم : أتنشطون لتفسـير القرآن ؟

قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقـة . فقالوا : هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة .

ثم قال لهم : أتنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحوا مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل اجابتهم السابقة . فقال : انا لله ، ماتت الهمم . واختصر كتابه فى نحو مما اختصر التفسير .

وبهذه العزيمة كان يقرأ وهو شديد المرض ، فقد ذكر تلميذه ابن كامل ، أنه زاره قبل المغرب وهو شديد العلة ، فرأى تحت مصلاه كتاب فردوس الحكمة لعلى بن زين الطبرى ، وكان أبو جعفر قد كتبه سماعا من مؤلفه (١) .

وكانت عزيمته القوية تنشطه الى القراءة وهو فى الخامسة والثمانين من عمره ، ولم يكن يقنع بالقراءة فى ذلك الوقت ، بل كان يتدبر ما يقرأ ، ويتمعن فيه ، ويخط بقلمه فى كثير من المواضع ، فقد قال أبو القاسم الحسين بن حُبَيْش الوراق : التمس منى أبو جعفر أن أجمع له كتب العلماء فى القياس ، فجمعت له نيفا وثلاثين كتابا ، ومكثت عنده مديدة ، ثم قطع الالقاء قبل موته بشهور ، فرد الكتب الى ، وفيها علامات حمر بقلمه (٢) .

فلا غرابة فى نفرته مما لا يلائم عزيمته الجادة ، لأنه يتوهم أنه يحول بينه وبين ما فرغ له من الجد فى الدرس وتحصيل العلم ، قال : لما هبطت مصر سنة ٢٥٦ — يقصد المرة الثانية — نزلت على الربيع بن سليمان ، فأمر باستئجار دار قريبة منه ، وجاءنى أصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمارين وسدة .

فقلت : أما القصرية فأنا لا ولد لى ، وما حللت سرا ويلى على حرام ولا حلال قط .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٨ .
(٢) معجم الأدباء ١٨/٨١ .

وأما الزير فمن الملاهى ، وليس هذا من شأنى .

وأما الحماران فان أبى وهب لى بضاعة ، وأنا أستعين بها فى طلب العلم ، فان صرفتها فى ثمن الحمارين ، فبأى شىء أطلب العلم .

فتبسموا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟

فقالوا : يحتاج الى درهمين وثلثين .

فأخذوا ذلك منى

ثم علمت أنها أشياء متفقة

وجاءونى باجّانة ،وحُبّ للماء ، وأربع خشبات قد شدوا وسطهما بشريط (١) وقالوا . الزير للماء ، والقصرية للخبز ، والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث فنفعنى ذلك .

ولما كثرت البراغيث كنت اذا دخلت الدار نزعت ثيابى ، وعلقتها على حبل قد شددته ، وأتزرت ، وصعدت الى السدة خوفا منها .

ويظهر من المفارقة بين ما أراد وأرادوا أن مدلول هذه الكلمات فى مصر كان يغاير مدلولها فى العراق وطبرستان .

وكانت ثمرات هـذه العزيمـة أنه خلف ثروة عظيمـة من المؤلفات ، دهش لها تلاميذه ، فحسبها بعضهم بأنه دأب على الكتـابة أربعين سنة ، يكتب فى كل يوم أربعين ورقـة .

---

(١) الاجابة : اناء تغسل فيـه الثياب • الحب : الزير • الخشبات والشريط والحماران والسدة : السرير •

وحسبها الآخرون بأنها لو قسمت على أيام حياته منذ بلغ الحلم الى أن توفى لخص كل يوم منها أربع عشرة ورقة .

٦ — تفاؤله

قد سبق أن أباه رأى حلما لابنه وهو صغير ، فتفاءل بتعبيره أن ابنه سيذب عن الاسلام ، ورجحت أن الوالد أطلع ابنه على الرؤيا وتعبيرها ، وأنها كانت من البواعث الى حرص الوالد على تعليم ابنه ، وجد الولد فى الدرس والتحصيل والتأليف .

والتفاؤل سمة من سمات النفس السمحة ، والطبع المنبسط ، والحياة الرخية التى لا تعقيد فيها ولا التواء .

فلا غرابة فى أن كان الطبرى يتفاءل .

قال أبو بكر بن كامل : زرت الطبرى وهو شديد العلة ، ومعى ابنى . فقال لى : هذا ابنك ؟ قلت : نعم . قال : ما اسمه ؟ قلت : عبد الغنى . قال : أغناه الله . وبأى شىء كنيته ؟ قلت : بأبى رفاعة . قال : رفعه الله . هل لك غيره ؟ قلت : نعم ، أصغر منه . قال : وما اسمه ؟ قلت : عبد الوهاب أبو يَعْلَى . قال : أعلاه الله ، لقد اخترت الكنى والأسماء .

وقد كان تفاؤله وزهده وقناعته بما يرسل اليه من نصيبه فى المزرعة التى خلفها أبوه ، وشغفه بالعلم ، وانقطاعه له ، كان هذا هو السبب فى أنه لم يسخط من الدنيا حظه ، ولم

ينقم على أهل زمـــانه ، ولم يتبرم بالبحث الذى وهب له نفسه ، ومن هنا امتاز على كثير من العلماء والأدباء ، مثل عبد القاهر الجرجانى ، وأبى حيان التوحيدى .

أما الجرجانى فقد بلغ به سخطه وتهكمه بالجهلة الذين يجدون المال وينالون الجاه فى بعض الأحيان ، الى أنه نصح بترك العلم ، لأن السعادة مقرونة بالجهل ، فقال فى ذلك :

كبر على العلم يا صديقى
ومل الى الجهـــل ميل هائم
وعش حمـــارا تعش ســعيدا
فالسعد فى طالع البهـــائم (١)

ثم ذم عصره كله ، ووصمه بالخسة والجهل فى قوله :

هــــذا زمــــان ليس فيـ
ـه ســوى النذالة والجهـاله
لم يرق فيــــه صــــاعد
الا وســــلّمه النـــذاله

وأما أبو حيان التوحيدى فانه قد ضاق بالعلم والأدب، فأحرق كتبه ، وكتب رسالة يدافع فيها عن فعلته ويبررها ، نستنبط منها أنه كان يريد العلم وسيلة للثراء والجاه .

من هذه الرسالة قوله : « فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياما

---

(١) طبقات الشافعية ٣/٢٤٢ وفوات الوفيـــات ١/٢٩٨ وبغية الوعاة ٣١١ .

وليالى ... وأنا أجود عليك بالحجة الآن فى ذلك ان طالبت ، أو بالعذر ان استوضحت ، لتثق بى فيما كان منى .

... ان العلم يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فاذا كان العمل قاصرا عن العلم كان العلم كلاً على العالم . وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً ، وأورث ذلا ، وصار فى رقبة صاحبه غلا .

الى أن يقول :

وكيف أترك كتبى لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من انسان منهم حفاظ ؟

ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة الى أكل الخضر فى الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروءة ، والى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، والى مالا يحسن بالحر أن يرسمه القلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم .

فلم تعنى عينى — أيدك الله — بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة ، والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض (١) ؟

وفى تاريخ العلماء والأدباء كثير من الذين برموا بحياتهم ، وسخطوا حظهم من الحياة .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/١٦ ــ ٢٦

لكن الطبرى لم يتبرم ولم يتسخط ، بل كان يجد سعادته فى البحث والدرس والتنقيب .

٧ — ظرفه

لم يكن ليصرفه الجد الدائب فى تحصيل العلم والتدريس والتأليف عن الدعابة ، ووجاهة السمت ، والعناية بالنظافة ، وأناقة المظهر ، والتنعم بما أحله الله .

كان ظريفا فى ظاهره ، نظيفا فى باطنه ، حسن العشرة لمجالسيه ، مهذبا فى جميع أحواله .

تحدث أبو على محمد بن ادريس الجمال — وكان من وجهاء بغداد — قال : حضرنا يوما مع أبى جعفر الطبرى وليمة ، فجلست معه على مائدة ، فكان أجمل الجماعة أكلا ، وأظرفهم عشرة . وحضر جماعة من الغلمان على رءوسنا لسقى الماء والخدمة ، فرأيت بعض الغلمان قد مَدّ عينه الى بعض ماقدم الينا ، فأخذت لقمة فناولتها الغلام ، فنهانى أبو جعفر وقال : من أذن لك أن تأكل أو تطعم؟ فأخجلنى[1].

وقال ابن كامل : ما رأيت أظرف أكلا من أبى جعفر . كان يدخل يده فى الغضارة — القصعة الكبيرة — فيأخذ منها لقمة ، فاذا عاد بأخرى كسح باللقمة ما التطخ من

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٨٩ .

الغضارة باللقمة الأولى ، فكان لا يلتطخ من الغضـارة الا جانب واحد . وكان اذا تناول اللقمة ليأكل سمنًى ، ووضع يده اليسرى على لحيته ، ليوقيها من الزهومة — رائحـة اللحم السمين — فاذا حصلت اللقمة فى فمه أزال يده . وكان اذا جلس لا يكاد يسمع له تنخم ولا تبصق ، ولا ترى له تخامة ، واذا أراد أن يمسح ريقه أخذ ذؤابة منديله ومسح جانبى فمه .

وقد حاول تلميذه ابن كامل أن يتشبه بأستاذه فى فعله ، فتعذر عليه أن يعتاده (١) .

وكان لا يعـنـدم فى الصـيف الخيْس والريحـان واللينـوفر (٢) ، فاذا أكل نام فى الخيش — ثياب تشـبه الكتان — فى قميص قصير الأكمـام ، مصبوغ بالصنـدل وماء الورد ، ثم يقوم فيصلى الظهـر فى بيته ، ويكتب الى العصر ، ثم يخرج فيصلى العصر ، ويجلس للنـاس يقرئهم ويقرأون عليه الى المغرب ، ثم يجلس للفقـه والدرس الى العشاء ، ثم يدخل منزله بعد أن قسم ليله ونهاره فى مصلحة نفسه ودينه ونفع الخلق به كما وفقه الله عز وجل .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٩٠ .

(٢) الخيس : تمر يخلط بسمن واقط فيعجن شديدا ويرمى نواه وربما جعل فيه سويق .

اللينوفر : نوع من الرياحين ينبت فى المياه الراكـدة له أصل كالجزر وساق أملس .

ومن ظرفه أنه كان يكره التكلف والتقعر وينفر منهما بالدعابة اللطيفة .

ذكر أبو الفرج بن أبى العباس الثلاج — وكان يتعسف فى كلامه — فى مجلس الطبرى أنه أكل طباهقة .

فقال الطبرى : وما الطباهقه ؟ قال : هى الطباهجة [1]، ألا ترى العرب تقلب الجيم قافا ؟

فقال أبو جعفر : فأنت اذا ابو الفرق بن الثلاّق .

فصار يعرف بذلك ، ويمزح معه اخوانه به .

وكان أبو بكر بن الجواليقى يأخذ لسانه بالاعراب ، ويكثر فيه الى حد بغيض ، فأخذ فى ذلك يوما ، فقال له أبو جعفر : أنت بغيض . فسمى بغيض الطبرى .

ويذكر ابن كامل من تكلف الجواليقى هذا أنه رآه يوما بباب الطاق ، وكان مجتمعا لبعض الوراقين ، فوقف عليهم فسلم ، ثم اعتذر من وقوفه ينتظر الورّاق بقوله : « لولا من ماكنت بالذى » يريد لولا من هاهنا ماكنت لأقف على حانوتك .

(١) الطباهجة : طعام من بيض وبصل ولحم مشرح معرب طباهة بالفارسية .

صفاته العقلية

— ١ —

فاذا مارجعنا الى حياته لنستنبط صفـاته العقليـة ، وتتعرف ثقافته طالعتنا بشـائر ذكائه وهـو لما يزل فى سن الحداثة ، فهو — كما حدث عن نفسه — قد حفظ القرآن الكريم فى السابعة ، وصلى بالنـاس فى الثامنـة ، وكتب الحديث فى التاسعة .

وهذه الأسنان الثلاثة دون المستوى العالى الذى بلغه فى كل منها ، لأنه من النادر أن يستطيع صبى فى السابعة من عمره أن يحفظ القرآن كله ، ومن النادر أن يقدر صبى فى التاسعة على أن يكتب الحديث على الطريقة التى كان يجرى عليها القدماء من الرواية والسند .

واذا كان المصلون يرتضون أن يؤمهم غلام فى الثامنـة فان هذا يدل على ثقتهم فيه ، وتقديرهم له ، واعجابهم به .

— ٢ —

أما الثقافة فقد كان بها شديد الكلف ، دائم الظمأ .

وحقا ان منهوم العـلم لا يشبع ، كما أن منهوم المـال

لا يقنع . وأنى لمنهوم العلم أن يشبع ، وهو يجد فى كل لون من ألوان المعرفة كشفا عن جديد كان يجهله ، ولذة مستحدثة لا تغنى عنها لذة سابقة ؟

وقد عرفنا من حياة الطبرى أنه وهب العلم نفسه ، وقصر عليه حياته ، وناط به حاضره ومستقبله .

رحل فى طلب العلم الى كثير من الأقطار ، وجاب الآفاق ليسمع الأساتذة الذين دوى صيتهم ، وقرأ ما استطاع أن يقرأه مشغوف بالمعرفة ، كلف بالاطلاع .

وكان الحديث النبوى انو احد يحمله على طلبه فى مظنه ، قال : جئت الى أبى حاتم السجستانى ، وكان عنده حديث فى القياس عن الأصمعى ، عن أبى زائدة ، عن الشعبى ، فسألته عنه ، فحدثنى به [1] .

وكان لا يرضيه أن يجهل علما يستطيع الاحاطة به ، ولا يرضيه أن يسأله أحد عن علم موصول بثقافته وهو لا يعرفه . حدث عن معرفته بعلم العروض فقال : جاءنى يوما رجل ، فسألنى عن شىء من العروض ، ولم أكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت له : اذا كان غد فتعال الى .

وطلبت من صديق لى العروض للخليل بن أحمد ، فجاء به ، فنظرت فيه ليلتى ، فأمسيت غير عروضى ، وأصبحت عروضيا .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٨ .

وكانت شهرته مدعاة لأن يسأله الناس ، وباعثا له على الاطلاع والاستزادة ، فهو يتحدث بأنه لما دخل مصر لم يبق أحد من أهل العلم الا لقيه وامتحنه فى العلم الذى يتحقق به (١) .

ونستطيع أن نجمع ألوان ثقافته فى عدة مجموعات :

١ — العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصول وكلام .

وهذه هى ثقافته الأولى والأصيلة ، ومؤلفاته كلها تدور فى فلكها ، ماعدا كتابه فى التاريخ ، ورسائله فى فضائل على وأبى بكر وعمر والعباس .

فقد كان مجتهدا فى الفقه صاحب مذهب .

كان شافعيا أولا ، ثم انفرد بمذهب مستقل وآراء واختيارات جودها واحتج لها ، فلم يقلد أحدا (٢) .

وقد مكنه علمه الواسع بالمذاهب المختلفة أن يؤلف كتابا فى اختلاف الفقهاء ، فيعرض آراءهم ، وأدلتهم ، ويناقشها. لهذا طلب الخليفة المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥) من يحقق له وقفا تجتمع أقوال العلماء على صحته ، ويسلم من الخلاف ، فدلوه على الطبرى ، فأملى عليهم كتابا فى ذلك (٣)

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٦ .

(٢) الأنساب ٣٦٧ والفهرست ٢٣٤ وطبقات المفسرين ٣٠ وطبقات الشافعية ٢/١٣٧ ووفيات الأعيان ٣/٣٣٢ .

(٣) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

ونجد تلاميذه وغيرهم يشيدون بسعة علمه بالفقه وعمق تفكيره ، قال أبو بكر أحمد بن كامل أحد تلاميذه : لم أر بعد أبى جعفر أجمع للعلم ، وكتب العلماء ، ومعرفة اختلاف الفقهاء ، والتمكن من العلوم ، من أبى جعفر ، لأنى أروض نفسى فى عمل مسند عبد الله بن مسعود لنظير ما عمله أبو جعفر ، فما أحسن عمله ، وما يستقيم لى [1] .

وقال أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبرى أحد تلاميذه : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه ، لأنه جمع من علوم الاسلام ما لا نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة ، ولا ظهر من كتب المصنفين ، وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له .

وكان راجحا فى علوم القرآن والقراءات واختلاف الفقهاء مع الرواية كذلك ، على مافى كتابه البسيط والتهذيب وأحكام القراءات من غير تعويل على المناولات والاجازات ، ولا على ماقيل فى الأقوال ، بل يذكر ذلك بالأسانيد المشهورة.

ووصفه الخطيب البغدادى بأنه كان اماما يحكم بقوله : ويرجع الى رأيه ، وكان عالما بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين فى الأحكام ومسائل الحلال والحرام [2] .

وكذلك قال ابن خلكان [3] .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٧٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٣ ومعجم الأدباء ١٨/٤١ .

(٣) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢ .

وكان أبو العباس بن سُرَيْج يقول : محمد بن جرير الطبرى فقيه العالم [1] .

أما القراءات فقد أحاط بها ، وتخير لنفسه قراءة منها ، معتمدا على الأسانيد ، وعلى بصره باللغة والنحو والذوق الأسلوبى العام ، كما يتبين من كتابه فى التفسير .

قال أبو على الحسن بن على الأهوازى المقرىء فى كتاب الاقناع فى احدى عشرة قراءة .

ألف الطبرى فى القراءات كتابا جليلا كبيرا رأيته فى ثمانى عشرة مجلدة بخطوط كبار ، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ ، وعلل ذلك وشرحه ، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور [2] .

ويمثل هذا وصفه عبد العزيز الطبرى والخطيب البغدادى والقفطى وغيرهم .

وكذلك كان علمه بالسنة ، فقد درس الحديث منذ صغره ، وعكف على دراسته بعد ذلك ، فكان كما قال الخطيب البغدادى عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها [3] ووصفه ابن خلكان بأنه كان اماما فى الحديث [4] .

---

(١) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .
(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٥ .
(٣) تاريخ بغداد ٢/١٦٣ ومعجم الأدباء ١٨/٤١ .
(٤) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢ .

أما التفسير فحسبه شهادة على علمه الواسع به كتابه العظيم فيه ، وسأعرض له بالتفصيل والتحليل .

لهذا قال الخطيب البغدادى ان كتابه فى تفسير القرآن لم يصنف أحد مثله .

وقال ابن خلكان انه كان اماما فى تفسير القرآن .

وشهد أبو بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة بعد أن قرأ تفسيره من أوله الى آخره بأنه لا يعلم على أديم الأرض أعلم منه (١) .

ثم جاء السيوطى فوضعه فى مقدمة المفسرين على الاطلاق ، ووصف تفسيره بأنه أجمل التفاسير ، وقال انه جمع فيه بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه فى ذلك أحد قبله ولا بعده (٢) .

ولست أشك فى أن بعض هذه الأحكام العامة مردها الى الاعجاب العظيم ، لكنى ذكرتها لأقرب صورة الطبرى منقولة مما خطه معاصروه ولاحقوه ، ولست مع بعضهم فى تفضيله على من تقدمه ومن تأخر عنه .

٢ — العلوم الأدبية من لغة ونحو وصرف وعروض وبلاغة .

وله فيها مناقشات فى تفسيره تدل على تمكن

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٤ والأنساب ٣٦٧ ومعجم الأدباء ١٨/٤٣ وطبقات الشافعية ٢/١٣٧ وطبقات المفسرين ٣١ .

(٢) طبقات المفسرين ٣٠ .

وتذوق واحاطة . وكان يحفظ من الشعر الجاهلى والاسلامى كثيرا ، وطالما استشهد بالشعر فى تفسيره للقرآن الكريم ، وكثيرا ماذكر فى كتاب التاريخ أبياتا ومقتطعات وقصـــائد ورسائل وخطبا ومحاورات ، كما سيتبين فى دراسة كتابه فى التاريخ .

حدث ثعلب قال : قرأ علىّ أبو جعفـــر الطبرى شعر الشعراء قبل أن يكثر الناس عندى بمدة طويلة .

وقد اقترح عليه أبو الحسن على بن سراج المصرى أن يملى فى الفسطاط شعر الطرماح ، ويفسّر غريبه فأملاه (١)

وقد شهد تلميذه عبد العزيز الطبرى بأن فضـــله كان عظيما فى علم اللغة والنحو كما يتبين من كتابه فى التفسير ، وكتابه التهذيب .

وقال أبو بكر بن مجاهد : سألنى أبو العباس يوما : من بقى عندكم من النحاة فى الجانب الشرقى ببغداد ؟ فقلت : مابقى أحد ، مات الشيوخ . فقال : حتى خلا جانبكم . قلت : نعم الا أن يكون الطبرى الفقيه . فقال لى : ابن جرير ؟

قلت : نعم . قال : ذاك من حذّاق مذهب الكوفيين .

قال أبو بكر : وهذا كثـــير من أبى العباس ، لأنه كان شديد النفس ، شرس الأخلاق ، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق فى علمه (٢) .

---

(١) الفهرست ٢٣٤ ومعجم الأدباء ٥٣/١٨ .

(٢) معجم الأدباء ٦٠/١٨ .

٣ — التاريخ

وحسبه الكتاب العظيم الذى ألفه فيــه ، وسأعرض له بالتحليل والنقد بعد قليل . ولم يغب عن أحد من القدماء فضله فيه ، فقال أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلّس — وكان من أفاضــل عصره فى الفهم والعنـــاية بالعلم — ما عمل أحد فى تاريخ الزمان ، وحصر الكلام فيه مثل ما عمله الطبرى ، وانى لأظن أبا جعفر قد نسى مما حفظ الى أن مات قدر ماحفظه فلان طول عمره . وذكر رجلا كبيرا من أهل العلم . ثم قال ان كتابه فى التاريخ من الأفراد فى الدنيا فضلا ونباهة ، وهو يجمع كثـــيرا من علوم الدين والدنيا ، وهو فى نحو خمسة آلاف ورقة"[1] .

وكذلك أثنى الخطيب البغــدادى وابن خلكان وياقوت وغيرهم على كتاب التاريخ .

٤ — على أنه ألم بعدة علوم ، وتعمق فى بعضها ، ولم يتعمق فى بعضها الآخر ، ولكنه فى الحالين لم يشتهر بالتفوق فيها كما اشتهر فى العلوم السابقة .

ولم يكن ليستطيع النبوغ فى العلوم كلها ، لأن هــذا فوق طاقته ، وحسبه أنه كان اماما فى بعض ألوان المعــرفة الشائعة فى عصره ، وأنه كان على صلة بمعارف عصره .

فقد تحدث تلاميذه ومؤرخوه بأنه كان عالما بالفلسفة ، والمنطق والجدل والحساب والجبر والطب .

---

(١) المرجع السابق ١٨/ ٧٠ .

أما الجدل فان مقدرته فيه تستبين من مناقضاته لمعارضيه ، وردوده على مخالفيه ، ونقض الآراء التى لايقرها ، كما نجد فى كتابه التفسير ، وفى كتابه اختلاف الفقهاء .

وأما الفلسفة فقد ذكر تلميذه ابن كامل أنه رأى عنده كتاب فردوس الحكمة لعلى بن زين الطبرى فى ستة أجزاء ، وقال انه كان يقرأ فيه وهو مريض ، وانه كان قد كتبه سماعا من مؤلفه نفسه .

ونجد فى وصف تلميذه عبد العزيز الطبرى له أنه كان بارعا فى الحساب ، ثم نجده قد عرف من الطب قسطا وافرا يدل عليه كلامه فى الوصايا (١) . وقد تقدم فى صفاته الجسمية أنه كان يطبب نفسه ، وأن الطبيب عاده مرة ، فسأله عن حالته ، فوصف له ما يشكو منه ، وعرفه ماتعطاه ، وما ينوى أن يتعاطاه ، فدهش الطبيب وقال له : لست أعرف دواء فوق ماوصفته لنفسك .

على أنه يظهر من وصف أحد تلاميذه له أنه كان يجيد كثيرا من العلوم ، حتى ليخيل اليهم من براعته فى كل علم أنه لا يجيد غيره ، فكان كالقارىء الذى لا يعرف الا القرآن ، وكالمتحدث الذى لا يعرف الا الحديث ، وكالفقيه الذى لا يحسن غير الفقه ، وكالنحوى الذى لا يتقن سوى النحو ، وكالحاسب الذى لا علم له الا بالحساب (٢) .

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٦١ .
(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٦١ .

أثر هذه الشخصية

بهذه الشخصية العظيمة القوية ، وبهذه الأخلاق العالية النبيلة ، وبهذا التفوق الفكرى ، والثقافة الزاخرة التى أفاض منها الطبرى على تلاميذه ومعاصريه ومن بعدهم ، بهذا كله تبوأ الطبرى مكانة عالية فى حياته وبعد مماته ، وحق لطلابه وللمعجبين به من بعدهم أن يؤرخوا له فى كتب مستقلة ، كما فعل من تلاميذه أبو بكر أحمد بن كامل وعبد العزيز بن محمد الطبرى ، وأبو اسحاق بن ابراهيم ابن حبيب الطبرى ، وأبو الحسن أحمد بن يحيى بن علم الدين ، وكما فعل من بعدهم القفطى اذ ألف كتابا سماه (التحرير فى أخبار محمد بن جرير) ووصفه بأنه كتاب ممتع [1] .

على أن غير هؤلاء من المؤرخين لطبقات العلماء مجمعون على الاشادة به فى الفقه والحديث والتفسير والقراءات والتاريخ ، ومجمعون على التنويه بورعه وتدينه ونبالة أخلاقه .

لهذا بكاه الناس يوم مات بكاء العارفين بفضله ، وشيع جنازته ألوف لا يحصيهم الا الله ، وتردد الناس على قبره بالنهار وبالليل عدة شهور .

---

(١) انباه الرواة ٣/٨٩ ، ٩٠ .

ورثاه كثير من معاصريه ، منهم أبو سعيد بن الأعرابى بقوله :

حـــدث مفظع وخطب جليــــل
دق عن مثـــله اصطبـــار الصبور
قام ناعى العـــلوم أجمـــع لمـــا
قـــام ناعى محمـــــد بن جـــرير
فهوت أنجم لهـــــا زاهـــرات
مؤذنات رســــــومها بالدثور
وغـــدا روضهـــا الأنيق هشـــيما
ثم عادت ســــهولها كالوعور
يا أبا جعفـــر مضيت حميــــدا
غير وان فى الجـــد والتشـــمير
بين أجر على اجتهادك موفو
ر وسعى الى التقى مشـــكور
مستحقـــا به الخـــلود لدى جنـــ
ـة عـــدن فى غبطـــة وسرور (١)

ورثاه ابن دريد بقصيدة منها :

لن تستطيع لأمر الله تعقيبـــا
فاستنجد الصبر أو فاستشعر الحوبا (٢)

---

(١) تاريخ بغداد ١٦٧/٢ وطبقات المفسرين ٣١ . الدثور الفناء .

(٢) الحوب : الهلاك .

وافزع الى كنف التسليم وارض بما
قضى المهيمن مكروها ومحبـــوبا

ثم يقول :

أودى أبو جعفر والعلم فاصطحبـا
أعظم بذا صـاحبا اذ ذاك مصحوبا
ان المنيــــة لم تتلف به رجـــلا
بل أتلفت علمـــا للدين منصــوبا
أهدى الردى للثرى اذ نال مهجتـه
نجماً على من يعادى الحق مصبوبا
كان الزمان به تصــفو مشـــاربه
فالآن أصبح بالتـــكدير مقطـــوبا
كـــلا وأيامـــه الغـــر التى جعـلت
للعـــلم نورا وللتقـــوى محاريبـــا
لا ينسرى الدهــر عن شبه له أبدا
ما استوقف الحج بالأنصاب أرْكوبا (١)
اذا انتضى الرأى فى ايضاح مشكلة
أعاد منهجهـــا المطموس ملحوبا (٢)
لا يعزب الحـــــلم فى عتب وفى نزق
ولا يجـــرع ذا الذلال تثريبـــا (٣)

(١) أركوب : راكبون .
(٢) ملحوب : واضح واسع ممهد .
(٣) تثريب : لوم .

لا يولج اللغو والعوراء مسمعه
ولا يقارف ما يغشيه تأنيبا
ان قال قاد زمام الصدق منطقه
أو آثر الصمت أولى النفس تهييبا
تجلو مواعظه رين القلوب كما
يجلو ضياء سنا الصبح الغياهيبا [1]
سيان ظاهره البادى وباطنه
فلا تراه على العلات مجدوبا [2]
ودت بقاع بلاد الله لو جعلت
قبرا له فحباها جسمه طيبا

ثم يقول :

كنت المقوّم من زيغ ومن ظلع
وفّاك نصحا وتسديدا وتأديبا [3]
وكنت جامع أخلاق مطهرة
مهذبا من قراف الجهل تهذيبا [4]

---

(١) رين : غشاوة وكدر • الغياهيب : الظلمات •
(٢) مجدوب : معيب مذموم •
(٣) زيغ : ضلال • ظلع : المراد مرض وعيب •
(٤) تاريخ بغداد ١٦٧/٢ وطبقات الشافعية ١٣٨/٢ .

الفصل الخامس

تلاميذه

من شأن المنهل العذب أن يكثر رواده ، ويتتابع قصاده ، ثم لا يزداد على الأيام الا كثرة رواد وقصاد .

وقد كان الطبرى منهلا عذبا ثرا للثقافة الشائعة فى عصره ، وان شئت فقل انه كان ينابيع للثقافة الدينية والأدبية والتاريخية ، فليس غريبا أن يتحلق الطلاب حوله فى مصر والعراق ، ينهل كل منهم ماشاء من علم الأستاذ الكبير، ويقتبس من أخلاقه العالية .

وكان هؤلاء الطلاب يجلون أستاذهم ويحبونه ، لعلمه ، وسمو أخلاقه ، وحرصه على تزويدهم بالمعرفة ، وثقتهم بأنه يعطف عليهم عطف الأب الشفيق .

وقد كان الأستاذ يحبهم حقا ، لأنهم ورثة علمه ، وحملة مذهبه ، ونقلة آرائه ، ولعله أضفى عليهم أبوته اذ لم يكن له ولد .

وهم يصفونه بأنه كان لا يرضى أن يخص أحدا منهم بشىء من علمه ، فاذا قرأ عليه جماعة كتابا ، وتخلف أحدهم يوما ، أجّل القراءة حتى يحضر .

واذا سأله أحدهم أن يقرأ عليهم كتابا ، ثم غاب يوما لم يقرىء الحاضرين حتى يعود الغائب .

ولم يكن يجد غضاضة فى أن يعامل كبارهم معاملة الاخوة ، فقد ذكر ابن كامل أن بعض أصحاب الطبرى جفاه فى مجلس الطبرى ، فانقطع ابن كامل زمانا عن المجلس ، ثم لقيه الطبرى ، فاعتذر اليه كأنه جنى جناية ، ولم يزل فى ترفقه معه حتى أرضاه ، فعاد الى مجلسه [1] .

والذى يتتبع تاريخ هؤلاء الطلاب يجد بعضهم قد سلكوا طريق أستاذهم فى التأليف ، وفى كثرة الانتاج .

ويجد بعضهم قد نصبوا أنفسهم للدفاع عن مذهبه ، والملاحاة عن آرائه .

وآخرون منهم أرخوا حياة أستاذهم فى تفصيل تارة وفى اجمال تارة أخرى .

وبهذا كله وفوا لأستاذهم بعد مماته ، كما أصفوه ودهم فى حياته .

ومن هؤلاء الطلاب القاضى أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف (٢٦٠ — ٣٥٠) قاضى الكوفة من قبل أبى عمر محمد ابن يوسف .

وقد اشتهر بعلمه فى الفقه والقراءات والتفسير والأدب والتاريخ ، وله مؤلفات عدة منها : كتاب فى السير ، وكتاب فى غريب القرآن ، وكتاب فى القراءات ، وكتاب فى التاريخ ، وكتاب الشروط الكبير ، وكتاب المختصر فى الفقه ، وكتاب

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٥٤ .

جامع الفقـــه وغيرها . وله كتاب فى الترجمـــة للطبرى يعد أوفى كتاب فى تاريخه ، وقد نقل ياقوت أكثره[1] .

كان ابن كامل على مذهب أستاذه فى الفقه ، ثم خالفه فى أمور استقل فيها برأيه .

ومنهم عبد العزيز بن محمـــد الطبرى ، وله كتـــاب فى تاريخ أستاذه نقل ياقوت كثيرا منه [2] .

ومنهم أبو اسحاق بن ابراهيم بن حبيب الطبرى ، مؤلف كتاب فى التاريخ موصول بكتاب الطبرى ، ضمنه من أخبار أبى جعفر وأصحابه شيئا كثيرا ، وله كتاب الرسالة ، وكتاب جامع الفقه [3] .

ومنهم أبو الحسن أحمد بن يحيى بن علم الدين المنجم المتكلم ، وهو صاحب كتاب المدخـــل الى مذهب الطبرى ونصرة مذهبه ، وكتاب الاجمـــاع فى الفقـــه على مذهب أبى جعفر .

ومنهم أبو الفرج المعـــافى بن زكريا النهروانى القاضى المعروف بابن طرار ، وصفه ابن النديم بأنه كان أوحد عصره فى مذهب أبى جعفر ، وحفظ كتبه ، وكان مفتنـــا فى علوم

---

(١) تاريخ بغداد ٣٥٧/٤ ومعجم الأدباء ١٠٢/٤ ، ١٨ فى مواضع متفرقة وانباه الرواة ٩١/١ والفهرست ٣٢ والأنساب ٣٦٧ .

(٢) فى الجزء ١٨ .

(٣) الفهرست ٢٣٥ .

كثيرة ، مضطلعا بها ، مشهورا فيهـا ، وكان فى الغـاية من الذكاء ، وحسن الحفظ وسرعة الخاطر .

وله كتاب التحرير والمنَقّر فى أصول الفقـه ، وكتاب الحدود والعقود فى أصول الفقه ، وكتاب المرشد فى الفقه ، وكتاب المحاضر والسجلات ، وشرح كتاب الخفيف للطبرى ، وكتاب الشروط ، وكتاب الرد على داود بن على ، وكتاب القراءات ، وغيرها (١) .

ومنهم على بن عبد العزيز بن محمد الدّولابى ، مؤلف كتاب القراءات ، وكتاب أصول الكلام ، وكتاب الأصـول الأكبر ، وكتاب الأصول الأوسط ، وكتاب اثبات الرسالة .

وأبو بكر محمد بن أحمـد بن محمـد بن أبى الثلج الكاتب .

وأبو القاسم بن العراد مؤلف كتاب الاستقصاء فى الفقه .

وأبو الحسن الدقيقى الحلوانى الطبرى ، صاحب كتاب الشروط ، وكتاب الرد على المخالفين .

وأبو الحسين بن يونس مؤلف كتاب الاجماع فى الفقه .

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعى ، ومخلد بن جعفر ، وأبو عمر محمد بن أبى الحـيرى (٢) وأبو شعيب الحرانى ، وعبد الغفار الحصيبى ، وأبو عمرو بن حمدان (٣)

---

(١) الفهرست ٢٣٦ ووفيات الأعيان ٣/٣٣٢ .

(٢) الأنساب ٣٦٧ .

(٣) طبقات الشافعية ٢/١٣٦ .

وابن الحداد وأبو مسلم الكجى [1] وغيرهم ممن تتلمذوا عليه فى العراق بخاصة ، فانتهجوا نهجه ، واصطبغوا بصبغته، فصار الطابع المميز لكل منهم أنه تخرج فى مدرسة الطبرى .

وليس على الطبرى من لوم فى أن أى واحد من طلابه لم ينبغ نبوغ أستاذه ، ولم يبلغ المكانة العليا التى بلغها ، لأن الطبرى فذ موهوب ، والنبوغ يتفتق من بذرة لايهبها أستاذ ، بل يهبها الخالق سبحانه ، وقصارى ما يصنع الأستاذ أن يتعهد هذه البذرة برعايته وعنايته وتربيته ، لتشق تربتها ، وتتنسم الحياة ، ثم تؤتى ثمراتها فيما بعد .

واذا كان الطبرى لم يستطع أن يصنع الأفذاذ ، أو يهب النبوغ طلابه ومريديه ، فقد أدى رسالته خير أداء ، اذ وجههم وشجعهم ، وغذى عقولهم وقلوبهم ، وكان قدوتهم فى عمله وفى أخلاقه ، وقد حاول بعضهم أن يبلغ شأوه ، فقعدت بهم قدرهم ، لأن ذخيرته من الفطرة والاستعداد أعظم وأقوى من ذخيرتهم .

حسب الطبرى اذاً أنه خرج هؤلاء وأمثالهم ، وأن بقى له وحده لواء الزعامة عليهم فى الحياة وفى الممات غير منازع فى زعامته ، وتفوقه وأستاذيته .

---

(١) الفهرست ٢٣٥ .

الفصل السادس

مؤلفاته

ماذا تثمر هذه العوامل المجتمعة ؟

شغف بالمعرفة منذ الصغر الى نهاية العمر ، فى حياة كانت من بدايتها الى نهايتها ستا وثمانين سنة .

وثقافة متنوعة ، وعلم غزير متعمق فى بعض ألوان المعرفة ، وذكاء خارق ، وعقل ناضج ، وصبر دائب على البحث والدرس والتأليف .

ومع هذا كله تخفف من تبعات الزوجية والذرية ، وانقطاع للعلم والتأليف .

لا شك أنها تثمر ثروة عظيمة من المؤلفات .

وقد كانت مؤلفات الطبرى كثيرة وعظيمة .

ومن الخير للثقافة وللدارسين أن بعضها سلم من الضياع ، وطبع ، وما زال ينبوعا للبحث والدرس .

ومن أسف أن بعضها مفقود ، فعسى ألا يطول فقده ، وأن يوفق الله الباحثين الى العثور عليه واحيائه .

ولقد أدهشت غزارة انتاجه تلاميذه وأدهشت من بعدهم .

ذكر الخطيب البغدادى أنه سمع من على بن عبيد الله اللغوى السمسمى أن الطبرى واظب على الكتابة أربعين سنة ، وأنه كان يكتب فى كل يوم أربعين ورقة .

ومعنى هذا أنه كتب نحو ستمائة ألف ورقة .

وحدث عبد الله الفرغانى فى كتـابه « الصـلة » الذى وصل به تاريخ الطبرى فقال ان بعض تلاميذه قسموا أوراق مؤلفاته على أيام حياته منذ بلغ الحلم ، الى أن توفى ، فخص كل يوم منها أربع عشرة ورقة ، وقال ان هذا شيء لا يتهيأ لمخلوق الا بحسن عناية الخالق .

فاذا أسقطنا من عمره نحو ثنتى عشرة سنة ، كان ما كتبه بحساب هؤلاء نحو أربعمائة ألف ورقة .

وسواء أصح هذا التقدير أم ذاك ، أم لم يصح منها شيء ، فان فيهما الدليل على كثرة ماكتب الطبرى ، والدليـل على دهشة المقدرين من غزارة انتاجه .

أما مؤلفاته فهى(١) :

١ — جامع البيان فى تفسير القرآن (٢)

٢ — تاريخ الأمم والملوك (٣)

وسأعرض لهما بالتحليل المفصل

٣ — كتاب ذيل المذيل (٤)

---

(١) مستمدة من معجم الأدباء والفهرست وطبقات الشافعية والوافى بالوفيات .

(٢) طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٢٣ وبهامشـه تفسير النيسابورى ، ويطبع الآن بمطبعة الحلبى بمصر بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر .

(٣) طبع بأوربا ثم بالمطبعة الحسينية بالقاهرة ويطبع الآن بدار المعارف بمصر بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم.

(٤) طبع المختار منه مع كتاب التاريخ فى جزء مستقل هو الثالث عشر بعنوان (المنتخب من كتاب ذيل المذيل) .

وهو فى نحو ألف ورقة

خرج املاءه بعد سنة ثلاثمائة

وهو فى تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم الى عصر الطبرى . ذكر فيه تاريخ من قتل أو مات من الصحابة فى حياة الرسول ، وتاريخ من عاشوا بعده من أصحابه ورووا عنه ، أو نقل عنهم علم ، الى أن بلغ شيوخه الذين سمع منهم ، ولم يفته أن ينسب الضعف الى بعض المحدثين . وذكر تاريخ النساء اللائى أسلمن على عهد الرسول ، ومن مات منهن قبل الهجرة ، ومن متن بعدها .

وفى آخر الكتاب أبواب فيمن حدث عنه الاخوة ، أو الرجل وابنه ، ومن اشتهروا بكناهم دون أسمائهم ، ومن اشتهروا بأسمائهم دون كناهم من رجال ونساء .

وكثيرا ماتناول فى تاريخ الرجال طرائف من أخبارهم ومذاهبهم ، ودافع عن ذوى الفضل منهم ممن اتهموا بمذهب وهم منه أبرياء ، كالحسن البصرى وقتادة وعكرمة .

٤ — اختلاف الفقهاء . ويسمى اختلاف علماء الامصار فى أحكام شرائع الاسلام (١) .

وهو فى نحو ثلاثة آلاف ورقة

قصد به الى ذكر أقوال الفقهاء ، فى كثير من الأحكام

---

(١) حققه الدكتور فردريك كرن الألمانى وطبع بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢ م بعنوان (اختلاف الفقهاء) .

الشرعية . وسأعرض له بالتحليل فى دراسة الطبرى الفقيه .

٥ — لطيف القول فى أحكام شرائع الاسلام

وهو يريد بلطيف القول دقة الفكر ، وعمق النظر ، وقوة التعليل . ألفه بعد اختلاف الفقهاء ، فى نحو ألفين وخمسمائة ورقة . وقد بسط فيه مذهبه الذى يعول عليه جميع أصحابه، وهو من أنفس كتبه ، وكتب الفقهاء ، ومن أفضل أمهات المذاهب ، وأسدها تصنيفا (١)

وكان أبو بكر بن راميك يقول : ما ألف كتاب فى مذهب أجود من كتاب الطبرى لمذهبه .

وفى هذا الكتاب فصل جيد فى الشروط يسمى بأمثلة العدول يستجيده أهل بغداد ، ويعولون عليه ، وكان الطبرى مقدما فى علم الشروط قيما به .

(١) ذكر محمد بن داود الأصبهانى فى كتابه « الوصول الى معرفة الأصول » فى باب الاجماع أن الاجماع عند الطبرى هو اجماع الفقهاء الثمانية الذين ذكرهم فى كتابه اختلاف علماء الأمصار ، أخذا من قوله : أجمعوا ، وأجمعت الحجة على كذا . ومن قوله : ثم اختلفوا فقال مالك كذا ، وقال الأوزاعى كذا ، وقال فلان كذا . وعلق ياقوت بقوله : هذا غلط من ابن داود ، ولو رجع الى كتاب الطبرى لطيف القول ، والى كتابه الاختلاف ، وما أودعه كثيرا من كتبه لوجده يقرر أن الاجماع هو نقل المتواترين لما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآثار ، دون أن يكون ذلك رأيا ومأخوذا من جهة القياس ، ولعلم أن ما ذهب اليه من ذلك غلط فاحش وخطأ بين .

« معجم الأدباء ١٨/٧٢ » .

ومما تناوله فى هذا الكتاب الكلام فى أصول الفقــه ، والكلام فى الاجماع . وأخبار الآحاد والمراسيل ، والناسخ والمنسوخ فى الأحكام والمجمل والمفسر من الأخبار والأوامر والنواهى ، والكلام فى أفعال الرسل ، والخصوص والعموم، والاجتهاد ، وابطال الاستحسان .

كذلك تناول اللباس ، وأمهات الأولاد ، والشراب

٦ — الخفيف فى أحكام شرائع الاسلام .

هو مختصر كتابه اللطيف ، وسبب اختصاره أن أبا أحمد العباس ابن الحسن العزيزى راسله فى اختصاره ، فعمل هذا المختصر ليسهل تناوله .

وهو فى نحو أربعمائة ورقة .

٧— تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار (١) وهو الذى سماه القفطى (شرح الآثار) وقال : انه لم يكمله ، ثم عجز العلماء عن اكماله (٢) .

وقال ياقوت لم أر سواه فى معناه

وذكر السبكى فى طبقات الشافعية أنه من عجائب كتبه ، بدأ فيه بما رواه أبو بكر الصديق مما صح عنده بسنده ، ثم تكلم على كل حديث بعلله وطرقه ، وما فيه من الفقــه والسند ، واختلاف العلماء وحججهم ، وما فيه من المعانى

(١) منه نسخة مخطوطة فى كبريلى وعاطف أفندى وبايزيد والفاتح بالآستانة وأوله فى مكتبة الأسكوريال باسبانيا .

(٢) انباه الرواة ٣/٩٠ .

والغريب ، فتم منه مسند العشرة ، وأهل البيت والموالى ، ومن مسند ابن عباس قطعة كبيرة .

ومات قبل أن يتمه

٨ — كتاب بسيط القول فى أحكام شرائع الاسلام .

تناول فيه تسلسل الفقه بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وخراسان ، وكتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة ، وذكر اختلاف المختلفين واتفاقهم ، وذكر فيه المحاضر والسجلات والوصايا وأدب القاضى .

وهو فى نحو ألفى ورقة على ما ذكر ياقوت ، أو فى نحو ألف وخمسمائة ورقة كما ذكر السبكى .

٩ — كتاب آداب القضاة ، وهو أحد الكتب المشهورة بالتجويد والتفضيل ، ذكر فيه مدح القضاة وكتابهم ، وما ينبغى للقاضى أن يعمل به ، وذكر السجلات والشهادات والدعاوى البينات ، وهو فى نحو ألف ورقة .

١٠ — كتاب أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة .

وربما سماه بأدب النفس الشريفة والأخلاق الحميدة .

تناول فيه عدة أمور : كالورع والاخلاص والشكر والرياء والكبر والتواضع والخشوع والصبر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذكر كثيرا من الدعاء ، وفضل القرآن ، وأوقات الاجابة ودلائلها .

أنجز منه نحو خمسمائة ورقة فى أربعة أجزاء ، وكان ابتدأ فى تأليفه سنة ٣١٠ هـ ومات بعد مديدة قبل أن يكمله .

١١ — كتاب المسند المجرد :
ذكر فيه من حديثه عن الشيوخ ما قرأه على الناس .
١٢ — كتاب الرد على ذى الأسفار .
رد فيه على داود بن على الأصبهانى ، بعد أن لزم داود مدة ، وكتب من كتبه كثيرا .
وكان السبب فى تأليف هذا الكتاب أن مناقشة حدثت بين داود والطبرى ، وانتصر فيها الطبرى ، فشق ذلك على أصحاب داود ، وكلم أحدهم أبا جعفر بكلمة موجعة ، فقام من المجلس وعمل هذا الكتاب ، وأخرج منه شيئا بعد شىء الى أن أخرج نحو مائة ورقة .
١٣ — كتاب القراءات وتنزيل القرآن(١) :
ذكر فيه اختلاف القراء فى حروف القرآن ، وفصل فيه أسماء القراء بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وغيرها، وبين وجه كل قراءة ، وتأويلها ، والدلالة على ما ذهب اليه كل قارىء لها ، ووضح الصواب الذى اختاره هو منها ، والبرهان على صحة ما اختاره ، مستظهرا فى ذلك بقدرته على التفسير والاعراب .
ويشتمل هذا الكتاب على كتاب أبى عبيد القاسم ابن سلام ، لأنه كان عنده عن أحمد بن يوسف ، وعليه بنى كتابه (٢) .

---

(١) منه نسخة خطية بمكتبة جامعة الأزهر .
(٢) معجم الأدباء ٦٨/١٨ .

وهو كما وصفه ياقوت كتاب جيد .

وقد وصفه أبو على الحسن بن على الأهوازى المقرىء بأنه كتاب جليل كبير ، وقال : رأيته فى ثمانى عشرة مجلدة بخطوط كبـار ، ذكر ـ جميع القـراءات من المشهور والشواذ ، وعلل ذلك وشرحه ، واختار منهما قراءة لم يخرج بها عن المشهور .

١٤ — رسالة « البصير فى معالم الدين » :

كتبها الى أهل طبرستان فيما وقع بينهم من الخلاف فى الاسم والمسمى ، وفى مذاهب أهل البدع .

وهى فى نحو ثلاثين ورقة .

ولعلها هى التى سماها الصفدى (التبصير فى أصول الدين) .

١٥ — رسالته المسماة بصريح السنة :

ذكر فيها مذهبه ، وما يدين به ويعتقده ، والجزء الأخير منها فى الاعتقاد (١) .

وهى فى عدة أوراق .

١٦ — كتاب فضائل على بن أبى طالب :

تناول فى أوله صـحة الأخبار الواردة فى غدير خُم (٢)

---

(١) طبع الجزء الأخير منها فى بمباى سنة ١٣٢١ ثم طبع بمصر . واسم الكتاب عند أكثرهم شرح السنة .

(٢) غديرخم ، موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجحفة وهو مجتمع ماء تصب فيه عين ، وحوله شجر كبير .
يروى الشيعة عن البراء بن عازب انه قال : كنا مع رسول=

ثم عقب بفضائل على ، ولكنه لم يتم الكتاب[1] .

= الله صلى الله عليه وسلم · فى سفر فنزلنا بغديرخم ، فامر بتنظيف مكان بين الأشجار الملتفه بالغدير ، استعدادا لاقامه الصلاة ، ثم نادوا الصلاة جامعة ، فصلينا الظهر ، ثم أخذ النبى بيد على بن أبى طالب · فقال : ألستم تعلمون انى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قلنا : بلى فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار · ألا هل بلغت · قالها ثلاثا · والشيعة يتخذون هذا اليوم عيدا ، وأول من اتخذه معز الدولة البويهى سنة ٣٥٢ هـ ثم جعله الفاطميون عيدا فى مصر سنة ٣٦٢ منذ قدم المعز اليها (الملل والنحل للشهرستانى ١/١٤٤) وقد نظم السيد الحميرى المتوفى سنة ١٧٣ هذه القصة فى أبيات منها) :

عجبت من قوم أتوا أحمدا ... بخطة ليس لها موضع
قالوا له : لوشئت أعلمتنا ... الى من الغايه والمفزع ؟
اذا توفيت وفارقتنا ... وفيهم فى الملك من يطمع
فعندها قام النبى الذى ... كان بما يامره يصدع
يخطب مامورا وفى كفه ... كف على نورها يلمع
من كنت مولاه فهذا له ... مولى . فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظل قوم غاظهم قوله ... كانما آنافهم تجدع

وقد كذب بعض علماء بغداد ماروى حول غديرخم ، وقال ان عليا كان باليمن حينذاك ، فلما علم بالطبرى الف كتابه فى ذلك وكثر الناس لاستماعه ·

(١) فى منتخب تاريخ علم الدين البرزالى انه راى الكتاب فى مجلدين ضخمين (مقدمة كتاب اختلاف الفقهاء للطبرى صفحة ١٢) ·

١٧ — كتاب فضائل أبى بكر وعمر [١] :

لم يتمه .

١٨ — كتاب فضائل العباس [٢] :

عاجله الموت قبل اكماله .

١٩ — كتاب فى عبارة الرؤيا .

جمع فيه أحاديث ، ومات ولم يتمه .

٢٠ — كتاب مختصر مناسك الحج :

٢١ — كتاب مختصر الفرائض :

٢٢ — كتاب فى الرد على ابن عبد الحكم على مالك.

٢٣ — كتاب الموجز فى الأصول :

ابتدأ فيه برسالة الأخلاق ، لكنه لم يتمه .

٢٤ — وينسب اليه كتاب الرمى بالنشاب .

وهو كتاب صغير . قال عبد العزيز بن محمد الطبرى ، انه وقع اليه ، وما علم أحدا قرأه عليه ، ولا ضابطا ضبطه عنه ، ولا ثقة ينسبه اليه ، ورجح أنه منحول .

على أننى أتبين من الثبت الذى ذكره الصفدى أسماء كتب أخرى لم يذكرها ياقوت ، وأسماء كتب هى فى حقيقتها

---

(١) و (٢) بسط جماعة من أهل طبرستان ألسنتهم فى الصحابة وجعلوا يسبونهم فألف الطبرى كتابا فى فضائل أبى بكر وعمر وأملاه ، ثم خاف أن يلحق به من الناس شر ، فسافر، ثم سأله العباسيون أن يؤلف فى فضائل العباس . فشرع فى تأليف كتابه فى ذلك ، وأملى بعضه ، ثم قطع الاملاء قبل موته .

أبواب أو فصول من كتب ذكرها ياقوت وبخاصة كتاب لطيف القول .

أما التى لم يذكرها ياقوت فهى :

٢٥ - العدد والتنزيل .

٢٦ - مسند ابن عباس .

٢٧ - كتاب المسترشد .

٢٨ - اختيار من أقاويل الفقهاء .

الفصل السابع

الطبرى المفسر

علوم ثلاثة لا يذكر الطبرى الا مقرونا بها كلها : التفسير والتاريخ والفقه ، لأنه تفوق فيها ، ولأنه خلف فى كل منها كتابا أو كتبا عظيمة القيمة .

ويجدر بى قبل أن أعرض لمنهجه فى التفسير أن ألم على عجل بالمراحل التى اجتازها التفسير ، وبالمناهج التى سلكها المفسرون قبل الطبرى وفى عصره ، ليتبين تأثيرها فى منهجه، ويتضح ما فى تفسيره من أصالة ومن تقليد .

– ١ –

كان النبى عليه الصلاة والسلام يتلقى القرآن الكريم منجما حسب الوقائع والأحداث والمناسبات ، فيبين لأصحابه ما يحتاج الى تبيين . ثم جاء التابعون فرووا عن الصحابة ما سمعوه عن رسول الله .

فلما دونت الكتب أودعها المدونون ما روى عن الصحابة والتابعين من التفسير .

وكان الذى دونوه أحاديث نبوية توضح أسباب النزول أو بعض الأحكام الشرعية أو الناسخ والمنسوخ .

ومن هنا ارتبط التفسير بالحديث ، حتى ان الامام

الشافعى قال ان ابن عباس لم يثبت عنه فى التفسير الا مائة حديث . وذلك أنهم نسبوا الى ابن عباس كتابا فى الحديث ، أى مجموعة كبيرة من أحاديث رسول الله متصلة بتفسير القرآن الكريم .

وكان مالك بن أنس من أوائل من دونوا التفسير بهذا المعنى .

فلا غرابة فى أن كان الطابع العام للمفسرين الى ذلك الوقت هو التقيد بما روى عن رسول الله وصحابته ، حتى ان سعيد بن المسيب كان اذا سئل عن تفسير آية من القرآن الكريم قال : انا لا نقول فى القرآن شيئا(١) .

لهذا تشددوا فى التزام ما أثر ، وتحرجوا من التفسير بالرأى ، حتى روى عن عبيد الله بن عمر أنه قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وانهم ليعظمون القول فى التفسير ، منهم سالم بن عبيد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع .

وقال الشعبى ، ثلاثة لا أقول فيهن حتى أموت ، القرآن والروح والرأى (٢) كذلك كان القاسم بن محمد بن أبى بكر وسليم بن عبد الله بن عمر يمتنعان من تفسير القرآن (٣) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٥/٣٥٠ مادة تفسير وتعليق الأستاذ أمين الخولى .

(٢) تفسير الطبرى ١/٢٩ .

(٣) الطبقات الكبرى ٥/١٣٩ ، ١٤٨ .

وكان عبيدة بن قيس الكوفى المتوفى سنة ٧٢ يرفض أن يذكر من أسباب النزول شيئا ، ويقول لسائله : عليك باتقاء الله والسداد ، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن (١) .

وكان الأصمعى على علمه الواسع باللغة ، شديد التحرز فى تفسير القرآن والسنة ، فاذا سئل عن شىء منهما قال : العرب تقول : معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة أى شىء هو (٢) .

وربما كان مرجع تحرجهم الى أنهم وجدوا بعض ورووا حديثا فى ذلك ، يؤيد دعواهم هو : « من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

وربما كان مرجع تحرجهم الى انهم وجدوا بعض معاصريهم يضيفون الى التفسير كثيرا من الأخبار والأساطير، بعضها منقول عمن أسلموا من النصارى واليهود ، وبعضها من تزيدهم واختراع خيالهم . فقد كانت لليهود والنصارى أخبار وأقاصيص متصلة بشروح التوراة ، وقد أسلم بعضهم، وسمع منهم بعض المسلمين ، وأضافوا ما سمعوه الى تفسيرهم ، مثل مقاتل بن سليمان بن بشير المتوفى سنة ١٥٠ الذى حكى عن الشافعى أنه قال فيه : الناس كلهم عيال على ثلاثة ، على مقاتل بن سليمان فى التفسير ، وعلى زهير

(١) الطبقات الكبرى ٦/٦٤ .
(٢) وفيات الأعيان ١/٤٠٩ .

ابن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام [1] .

فقد ذكر أبو حاتم محمد بن حيان البستى أن مقاتلا هذا يستمد فى تفسير القرآن الكريم أخبارا من اليهود والنصارى، ويأخذ من كتبهم علم القرآن العزيز [2] .

وكذلك فعل ابن اسحاق المتوفى حوالى سنة ١٥١ فقد كان يسميهم أهل العلم الأول [3] .

واستمد منهم أيضا عبد الله بن عمرو بن العاص [4] .

أما القصاص والوعاظ فقد كانوا يجلسون للقصص على العامة ، وكانوا ينطلقون فى التشويق الى ما يقصون ، فى غير حرص على توخى الحقائق التاريخية .

جاء جماعة الى ابن مسعود فذكروا له أن بالمسجد قاصا يقول فى تأويل قوله تعالى :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون » .

تدرون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة فيأخذ أسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام .

وكان ابن مسعود مضطجعا ففزع فقعد وقال ان الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل ما أسألكم

(١) وفيات الأعيان ٣٤١/٤ .
(٢) المرجع السابق ٣٤٣/٤ .
(٣) الفهرست ٩٢ .
(٤) الاتقان ٣٢٣/٢ .

عليه أجرا وما أنا من المتكلفين » ان من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . سأحدثكم عن ذلك : ان قريشا لما أبطأت عن الاسلام ، واستعصت على رسول الله دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم الى السماء فلا يرون الا الدخان ، وقرأ الآية ، وقال الله جل ثناؤه « انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » فعادوا يوم بدر فانتقم الله منهم [1].

لهذا قال أحمد بن حنبل : ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازى . وليس من المعقول أن يصف امام فى الأحكام الشرعية تفسير القرآن بأنه لا أصل له ، وهو يقصد التفسير الصحيح ، بل المعقول أنه يقصد التفسير القصصى المحشو بأخبار منبعها الخيال ، ولهذا قرنه بالملاحم والمغازى ، اذ كان الخيال قد لون بعضها بزخارفه ومبالغاته. واذا فقد كان بعض العلماء يتوسعون فى التفسير فلا يتقيدون بما يروى عن رسول الله وصحابته ، بل يضيفون الى التفسير أخبارا وأقاصيص سمعوها من اليهود الذين أسلموا ، ويروون أخبارا وأقاصيص عن الأمم البائدة ، ولكنهم بصفة عامة لم يخرجوا بالتفسير عن حدود النقل الى ذلك الوقت .

---

(١) تفسير الطبرى ٦٦/٢٥ .

والسبب فى هذا أنهم كانوا يتحرجون من القول بآرائهم فى التفسير ، ويعتمدون على أربعة مصادر لا يتعدونها .

أولها : النقل عن رسول الله مع التثبت من وسائل النقل.

وثانيها : الأخذ عن الصحابى .

وثالثها : الأخذ بما تمليه اللغة .

ورابعها : التفسير بما يقتضيه التعبير وروح الشريعة .

وكانوا لا يجيزون التفسير بالرأى والاجتهاد من غير أصل يستند اليه المفسر .

واشترطوا فيمن يتصدى للتفسير أن يكون موهوبا ، وعالما بأربعة عشر علما ، هى : اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والقراءات والأصول وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

— ٢ —

فلما تقدم الزمن ، وتطورت الثقافة ، وتعددت ألوانها ، واحتدم الخلاف السياسى والدينى والمذهبى ، خطا المفسرون من مرحلة النقل الى مرحلة الاجتهاد والعقل ، ولم يتحرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم ، لأنهم رأوا فى التحرج عدولا عن التفكير والنظر واستنباط الأحكام ، كما يفهم من قوله تعالى : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ولو صح ما ذهب اليه المتحرجون لم يستنبط أحد شيئا ، ولم يفهم كثيرا مما فى كتاب الله .

وعلى فرض صحة الحديث الذى ينهى عن التفسير بالرأى ، فان المراد الرأى الذى لا يعتمد على أصل ثابت ، ولا يستند الى روح الشريعة ، بل يذهب مع الهوى كل مذهب .

فلم يكن غريبا أن اجتهد كثير من العلماء فى تفسير القرآن الكريم ، وأدلوا بآرائهم ، لأنهم كانوا مستكملين العدة التى يجب أن تتوفر للمفسر من علم باللغة وأساليبها ، ومعرفة بالقراءات ، وأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، ودراية بالحديث النبوى ، وروح الشريعة .

وكان العراقيون هم السباقين الى التفسير بالرأى ، لأن العراق كان فى ذلك الوقت أكثر الأقطار الاسلامية أخذا بالرأى فى التشريع ، ومنذ ذلك الحين وجد تفسير وتأويل[1] .

وجعل التفسير من القرن الثانى يتأثر باتجاهات المفسرين ، ويصطبغ بثقافاتهم .

---

(١) التفسير يعتمد على النقل عن رسول الله وأصحابه ولاسيما فى الأمور التوقيفية التى لايمكن للعقل أن يفصل فيها ، كتفسير بعض أوائل السور مثل ألم وحم وكهيعص ، وكذلك الناسخ والمنسوخ .

والتأويل يعتمد على الاجتهاد والرأى بمعرفة المعانى اللغوية للألفاظ ، وطرق استعمالها فى الأساليب ، واستنباط المعانى منها . وفى كتب التفسير هذا وذاك ، فبعضها مطبوع بطابع المحدثين ، لايتعدى ذكر المأثور ، وبعضها مطبوع بالرأى والاجتهاد .

فالنحاة : كالزجاج والواحدى وأبى حيان يهتمون بالخلافات النحوية والتخريج ، ويعربون القرآن اعرابا يساعد على تفسيره ، ويعلون بمشكلاته النحوية فى مثل قوله تعالى « ان هذان لساحران » وقوله « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » وقوله « ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما » .

واللغويون : كأبى عبيدة وقطرب يؤلفون كتبا فى غريب القرآن ، ويعنون بمشكلاته اللغوية فى مثل قوله تعالى « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وقوله : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

ولهؤلاء وأولئك كتب تسمى معانى القرآن .

وبعضهم عنى بمجازات القرآن فى مثل قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » .

والفقهاء يختصون آيات الأحكام بعنايتهم ، ويؤلفون كتبا مثل كتاب أحكام القرآن على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن لأبى بكر الرازى على مذهب أهل العراق ، وكتاب أحكام القرآن للشافعى ، وأحكام القرآن لداود بن على الظاهرى ، وأحكام القرآن للقرطبى .

والمتكلمون يؤولون بعض الآيات لتعزيز مذاهبهم كالزمخشرى .

والمشتغلون بالعلوم العقلية ينتهزون بعض الآيات ، فيحشدون آراء الفلاسفة والحكماء كما فعل الرازى .

والمتصوفة يلونون تفسيرهم بآرائهم كابن عربى الأندلسى [1]

— ٣ —

عاش الطبرى فى القرن الثالث ، فاطلع على أنواع التفسير التى سبقته ، والتى عاصرته ، قارئا حينا ، وسامعا من العلماء حينا آخر ، فاختار أجودها وأنسبها الى مذهبه ، ودرسه لتلاميذه . وهو يدين بأن التفسير الصحيح المستند الى ما روى عن النبى وعن صحابته ، واجب على من يتصدى لدراسة الدين كما يتضح من مقدمة تفسيره .

---

(١) ضحى الاسلام ١٤٦/٢ .

موضوع كتابه

يدل اسم الكتاب على موضوعه فهو « جامع البيان فى تفسير القرآن » كذلك نجد اسمه فى النسخ المطبوعة . على حين أن الطبرى سماه فى كتاب التاريخ « جامع البيان عن تأويل آى القرآن[1] » وكذلك ذكر ياقوت[2] .

وقد ألفه قبل أن يؤلف كتاب التاريخ [3] ، وهو نفسه يذكر فى كتاب التاريخ ما يثبت ذلك اذ يقول : وقيلت أقوال فى ذلك ، قد حكينا منها جملا فى كتابنا المسمى جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، فكرهنا اطالة الكتاب بذكر ذلك فى هذا الموضوع »[4] .

وكان تأليفه فى أواخر القرن الثالث ، قال أبو بكر بن كامل انه قرأه على تلاميذه سنة ٢٧٠[5] ، وقال أبو بكر بن بالويه انه أملاه عليهم من سنة ٢٨٣ الى سنة ٢٩٠[6]

---

(١) كتاب التاريخ ١/٤٥ .
(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٤ .
(٣) معجم الأدباء ١٨ .
(٤) كتاب التاريخ ١/٤٥ .
(٥) معجم الأدباء ١٨/٦٢ .
(٦) تاريخ بغداد ٢/١٦٤ ومعجم الأدباء ١٨/٤٢ .

ويظهر أنه أملاه على طبقتين من الطلاب .
وقد طبع هذا الكتاب مرات [1] .
ونستطيع أن نوجز مادته فى ثلاثة موضوعات :

— ١ —

أولها قضايا كثيرة عرض لها فى المقدمة :

١ — منها شرح الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف » والانتهاء من مناقشة الآراء المختلفة فيه الى أن معناه أنزل القرآن بسبع لهجات من لغة العرب ، لأن الذين اختلفوا فى بعض القراءة واحتكموا الى النبى صلى الله عليه وسلم فصوبهم كلهم فى قراءاتهم على اختلافها ، وقال لهم : « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منها » انما كان اختلافهم فى التلاوة نفسها دون المعانى التى دلت عليها التلاوة من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك [2] .

٢ — ومنها بيان اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ،

(١) طبع بالمطبعة اليمنية بمصر سنة ١٣٢١ وبمطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ الى ١٣٣٠ ويطبع الآن بدار المعارف بمصر بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر .

(٢) التفسير ١/٩ — ٢٣ .

والرد على من قالوا ان فيه كلمات غير عربية[1] . ذلك أنه أورد هذه الآيات « يؤتكم كفلين من رحمته » و « ان ناشئة الليل هى أشد وطأ » و « ياجبال أوبى معه والطير » و (فرت من قسورة » و « ترميهم بحجارة من سجيل » .

ونقل فى تفسيرها أن الكفلين : ضعفان من الأجر بلغة الحبشية ، وأن الناشئة فى لغتهم القيام ، وأوبى بمعنى سبحى. وذكر أن القسورة الأسد بالفارسية ، وأن السجيل فارسية أيضـــا . ثم عقب على هذا ببحث مطـول خلاصـته أن الكلمات التى جاءت فى القرآن ، وخيل الى بعض العلماء أنها ليست من العربية انما هى مما اتفقت فى العربيــة وغيرها باللفظ والمعنى ، فليس لنا أن نقول انها فارسية لا عربية ، أو أنها حبشية لا عربية ، أو أنها رومية لا عربية ، لأن أى لسان ليس أولى بنسبتها اليه من اللسان العربى .

ومن هنا يصح أن يطلق على أمثال هذه الكلمات أنها

---

(١) من الذين نفوا الألفاظ الأعجمية فى القرآن الشافعى وأبو عبيدة والباقلانى وابن فارس ، مستدلين بقوله تعالى « انا أنزلناه قرآنا عربيا » وبقوله تعالى « ولو جعلناه قرآنا أعجميـــا لقالوا : لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى» ومن رأيهم أن الكلمات التى يظن أنها غير عربية اما أنها عربية خالصة لكن عروبتها خفيت على علماء اللغة ، واما أنها كانت فى الزمن القـــديم غير عربية ثم نقلها العرب فى الجاهلية واستعملوها فى شعرهم ومحاوراتهم فجرت مجرى العربى الفصيح ، ثم نزل القرآن فاستعمل بعضها.

عربية فارسية ، أو حبشية عربية ، اذ كانت الأمتان مشتركتين في استعمالها بلفظها ومعناها .

ثم أراد أن يقوى افتراضه فقال : لو أن أرضا بين سهل وجبل لها هواء السهل وهواء الجبل ، أو بين بر وبحر لها هواء البر وهواء البحر ، لم يمتنع ذو عقل صحيح من وصفها بأنها سهلية جبلية ، أو بأنها برية بحرية ، اذ لم تكن نسبتها الى هذا نافية نسبتها الى ذاك . ولو اقتصر على احدى النسبتين ولم يسلبها النسبة الأخرى كان صادقا محقا .

وقاس على هذا الكلمات التى قيل انها وردت فى القرآن الكريم غير عربية .

ثم انتهى الى أن من غير الجائز أن يتوهم ذو فطرة سليمة وايمان صحيح أن بعض القرآن فارسى لا عربى أو حبشى لا عربى .

وتمادى فى الجزم برأيه ، فرد على من قالوا ان بعض الكلمات غير عربية كانت العرب قد عربتها قبل نزول القرآن ، فقال ان أصلها عربى ، وتصادف أن وقعت فى لغات غير عربية ، أو نقلتها أمم أخرى عن العرب .

والحق أن دليل الطبرى افتراضى محض ، ان صح فى كلمة تخلف فى كلمات ، وان جاز فى بضع كلمات بطل فى عشرات الكلمات .

ثم ان التاريخ الأدبى للغة العربية يثبت أن العرب كانوا قبل الاسلام على صلات بالهنود والفرس والحبشة والروم

والنبط والسريان واليهود والنصارى ، عن طرق التجارة والرحلات والاسترقاق والحروب والجوار والمعاشرة ، وكان من الطبيعى أن تثمر هذه الصلات ثمرات شتى ، منها تنمية اللغة العربية بكلمات كثيرة نقلها العرب الى لغتهم ، ووردت فى شعرهم ، كما يتبين لمن يتصفح دواوينهم وينقب فى معاجم اللغة ، أو يردد النظر فى كتاب المعرب للجواليقى ، وشفاء الغليل للخفاجى .

وبهذا الاستعمال الأدبى صارت هذه الكلمات معربة ، وصار ورودها فى القرآن الكريم أمرا طبيعيا لا يستحق جدلا ولا انكارا بعد أن عربها العرب واشتقوا منها كلمات أخر[1].

وهل خطر لأحد أن يشك فى عربية شعر امرىء القيس أو الأعشى أو عدى بن زيد وأشباههم ، لأن فى شعر كل منهم كلمات فارسية أو رومية ؟

واذا فان الطبرى لم يكن له أن يؤيد الرأى الذى أنكر وقوع ألفاظ غير عربية فى القرآن ، بحجة أنها تخرجه عن صفته العربية التى وصفه بها الله تعالى ، لأن هذه الكلمات قليلة لا تخرج القرآن عن عربيته ، كما أن القصيدة الفارسية لا تنسلخ عن نسبتها الى اللغة الفارسية ، لأن فيها كلمة أو بضع كلمات عربية .

---

(١) عقد السيوطى فى الاتقان فصلا للكلمات غير العربية فى القرآن أورد فيه كلمات فارسية ورومية وحبشية وسريانية ونبطية وعبرية وهندية .

أما قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى » ، فان المراد ، أكلام أعجمى والمتكلم به عربى ؟

٣ — ومن القضايا التى عرض لها فى المقدمة وجوه تأويل القرآن ، وما يمكن الوصول اليه وما لا يمكن الوصول اليه .

والتأويل فى رأيه على ثلاثة أوجه :

أحدها : لا سبيل الى الوصول اليه ، وهو الذى استأثر الله بعلمه ، وحجب معرفته عن جميع خلقه ، مثل وقت قيام الساعة والنفخ فى الصور . وما أشبه ذلك .

والوجه الثانى : ما خص الله بعلم تأويله نبيه صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته ، فلا سبيل لهم الى علم ذلك الا ببيان الرسول لهم تأويله .

الثالث : ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن ، وذلك علم تأويل عربيته واعرابه .

فاذا كان ذلك كذلك فأحق المفسرين باصابة الحق فى تأويل القرآن أوضحهم حجة فيما تأول وفسر ، معتمدا على الأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اما من وجه النقل المستفيض عنه ، واما من نقل العدول الأثبات فيما لم يكن فيه نقل مستفيض ، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته . كذلك أوضحهم برهانا فيما ترجم وبَيَّن ، مما كان مدركا علمه من جهة اللسان معتمدا على الشواهد من أشعار العرب وعلى منطقهم ولغاتهم ، بعد ألا يكون

خارجا تأويله وتفسيره عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة [1] .

٤ — ثم عقد فصلا بعنوان (ذكر بعض الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن ، ومن كان يفسره من الصحابة) .

ذكر فيه أن الصحابة كانوا يتفهمون القرآن ، ويفسرونه، وعجب من الذين تحرجوا من تفسيره ، وبين أن الجهل بمعانى القرآن جهل بالدين وأحكامه ، وجهل بما فى القرآن من عبر وعظات .

وهو هنا يستدل بنوعين من الأدلة : ما جرى عليه الصحابة ، وما يقتضيه العقل والنظر .

أما ما جرى عليه الصحابة فقد ذكر أن ابن مسعود قال : كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وذكر أن عبد الله بن عمر قال : والله الذى لا اله غيره ما نزلت آية فى كتاب الله الا وأنا أعلم فيم نزلت ، وأين أنزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته .

وذكر ما روى عن مسروق قال : كان عبد الله يقرأ علينا السورة ، ثم يحدثنا فيها ، ويفسرها عامة النهار .

---

(١) تفسير الطبرى ٣١/١ بتصرف .

وروى أن ابن عباس قرأ على الناس فى الحج سورة النور ، وجعل يفسرها .

وروى أنه قرأ سورة البقرة وجعل يفسرها .

وقال ان سعيد بن جُبَيْر قال : من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى .

وأما الدليل العقلى فقد بناه على أن القرآن أنزل ليفهمه المسلمون ، ويتدبروه ، ويتعظوا به ، ويأتمروا بأمره ، وينتهوا بنهيه ، وليس شىء من هذا ممكنا الا اذا أدركوا معانيه ، وفسروا آياته ، لأن الأمر بغير مفهوم محال .

يقول فى هذا : وفى حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما فى آى القرآن من المواعظ والبينات بقوله — جل ذكره — لنبيه صلى الله عليه وسلم : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » وقوله : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون » .

وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آى القرآن والاتعاظ بمواعظه — ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آية .

لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من العقل والبيان والكلام، الا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ، ثم يتدبره ويعتبر به.

فأما قبل ذلك فمستحيل أمره بتـــدبره وهو بمعنـــاه جاهـــل .

كما أنه محال أن يقـــال لبعض أصناف الأمـــم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ذات أمثال ومواعظ وحكم : اعتبر بما فيها من الأمثال وادكر بما فيها من المواعظ ، الا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته ، ثم الاعتبار بما ينبهها عليه ما فيها من الحكم .

فأما وهى جاهلة بمعـــانى ما فيها من الكلام والمنطق ، فمحال أمرها بما دلت عليه معـــانى ما حوته من الأمثـــال والعبر ، بل سواء أمرها بذلك ، وأمر بعض البهائم به ، الا بعد العلم بمعانى المنطق والبيان الذى فيها .

فكذلك ما فى آى الله من العبر والحـــكم والأمثـــال والمواعظ ، لا يجوز أن يقال : اعتبر بها ، الا لمن كان بمعانى بيانه عالما ، وبكلام العرب عارفا ، ثم يتدبره بعد ، ويتعظ بحكمه وصنوف عبره .

فاذ كان ذلك كذلك ، وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبره ، وحثهم على الاعتبار بأمثاله ، كان معلوما أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدل عليه آية جاهلا .

واذ لم يجز أن يأمرهم بذلك الا وهم بما يدلهم عليه عالمون ، صح أنهم بتـــأويل ما لم يحجب عنهم علمـــه من آيه ـــ التى استأثر الله بعلمها دون خلقه ـــ عارفون .

وإذ صح ذلك فسد قول من أنكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزيله مالم يحجب عن خلقه تأويله (1) .

— ٢ —

ثم فسر القـرآن الكريم معتمـدا على ذكر أقـوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وعلى آراء النحاة من الكوفيين والبصريين ، وعلى وجوه القراءات والكلام فى الناسـخ والمنسوخ ، والأحكام والخلاف فيها ، وكان فى ذلك كله يرد على المخالفين .

مصـادره

— ١ —

الطابع العام لتفسير الطبرى اعتماده على المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى آراء الصحابة والتابعين .

ويبدو من تتبع الروايات التى سجلها فى كتابه أنه رجع الى كتب التفسير المصنفة عن ابن عباس من خمسة طرق ، وعن سعيد بن جُبَيْر من طريقين ، وعن مجاهد بن جَبْر من ثلاثة طرق ، وفى بعض المواضع يزيد على ذلك ، وعن كل من قتادة بن دعامة ، والحسن البصرى ، وعكرمة من ثلاثة طرق ، وعن الضحاك بن مزاحم من طريقين ، وعن عبد الله ابن مسعود من طريق .

وقد استفاد من تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ومن تفسير ابن جُرَيْج ، ومن تفسير مقاتل بن حيان والسدى وغيرهم.(١) .

على أنه استمد كتب الحديث فى كثير من المواضع .

— ٢ —

ثم انه أضاف الى التفسير بالمأثور ما عرف الى عصره

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٦٤ .

من نحو ولغة وشعر ، فاستشهد بالشعر كثيرا ، ورجع الى آراء نحاة البصرة ونحاة الكوفة ، والى آراء علماء اللغة ، مستعينا بكتب على بن حمزة الكسائى ، ويحيى بن زياد الفراء ، وأبى الحسن الأخفش ، وأبى على قطرب وغيرهم ، وكان أحيانا يذكر أسماءهم وأحيانا يكتفى بذكر آرائهم .

— ٣ —

كما أنه رجع الى القراءات وتخير منها ، ورجح ما تخيره.

واستعان بكتب الفقه ، فعرض كثيرا من آراء الفقهاء فى مناسباتها [١]

— ٤ —

وكذلك استعان بكتب التاريخ ، فنقل بعض أخبار العجم عن ابن اسحاق وغيره ، كما نقل عن وهب بن منبه [٢].

— ٥ —

وكذلك عرض بعض آراء المتكلمين ، وبخاصة المعتزلة ، وان كان هذا قليلا فى الكتاب ، لأنه سلفى الصبغة ، ولأن ثقافته الأصيلة دينية تاريخية لغوية .

---

(١) التفسير ١٤/٥٨ .

(٢) التفسير ١٦/١٣ .

وقد تحرى جهده أن تكون التفاسير التى ينقل منها مما يثق به ، فلم يدخل فى كتابه شيئا عن محمد بن السائب الكلبى ، ولا مقاتل بن سليمان ، ولا محمد بن عمر الواقدى، لأنهم فى رأيه متهمون .

لكنه اذا رجع الى التاريخ والسير وأخبار العرب حكى عنهم وعن غيرهم ، مثل هشام بن الكلبى فيما يفتقر اليه ، ولا يؤخذ الا عنهم .

منهجه

نهج الطبرى طريقة خاصة به ، التزمها ولم يحد عنها ، تتميز بعدة سمات ، هذه أبرزها .

١ — الاعتماد على المأثور

ذلك أنه اعتمد على التفسير بالمأثور ، مما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ومما روى عن الصحابة والتابعين ، متبعا طريقة الاسناد الدقيقة فى سلاسل الروايات.

وبهذا اصطبغ تفسيره بأنه سجل لما أثر من آراء .

لكنه كان فى أكثر تفسيره يلخص الفكرة العامة التى يستنبطها من هذه الروايات ، ويصوغها بقلمه ، ثم يعقب عليها بذكر الروايات التى قد تختلف فى التفصيل والايجاز ،

أو تختلف فى أمور شكلية لا تعارض الجوهر الأصيل للفكرة .

فاذا كانت هناك روايات أخرى تعارض ما ذكر فى تلخيصه وفى تفصيله سجلها بعد ذلك وعقّب عليها .

من أمثلة هذا قوله فى تأويل الآية الكريمة « الله لا اله الا هو الحى القيوم » أما تأويل قوله « لا اله الا هو » فان معناه النهى عن أن يعبد شىء غير الله الحى القيوم ، لا اله سواه ، ولا معبود سواه ، يعنى ولا تعبدوا شيئا سواه الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، والذى صفته ما وصف فى هذه الآية .

وهذه الآية ابانة من الله تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله عما جاءت به المختلفين[1] فى البينات من بعد الرسل الذين أخبرنا تعالى ذكره أنه فضل بعضهم على بعض واختلفوا فيه ، فاقتتلوا به كفرا به من بعض ، وايمانا به من بعض ، فالحمد لله الذى هدانا للتصديق به ، ووفقنا للاقرار به .

وأما قوله « الحى » فانه يعنى الذى له الحياة الدائمة ، والبقاء الذى لا أول له يُحَدّ ، ولا آخر له يُؤَمَّد[2] ، اذ كان كل ما سواه فانه وان كان حيا ، فلحياته أول محدود

(١) يريد عما خاطب به المختلفين فى البينات .

(٢) يؤمد : ينتهى

وآخر مأمود ، ينقطع بانقطاع أمدها ، وينقضى بانقضاء غايتها .

وبما قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثت عن عمّار بن الحسن قال : حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع : قوله « الحى » حى لا يموت .

حدثنى المثنى قال : حدثنا اسحاق قال : حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع مثله .

وقد اختلف أهل البحث فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم انما سمى الله نفسه حيا لصرفه الأمور مصارفها ، وتقديره الأشياء مقاديرها ، فهو حى بالتدبير لا بحياة .

وقال آخرون : بل هو حى بحياة له صفة .

وقال آخرون : بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به ، فقلناه تسليما لأمره .

وأما قوله « القيوم » فانه الفيعول من القيام .

ومعنى قوله « القيوم » : القائم برزق ما خلق ، وحفظه كما قال أمية :

لم تخلق السماء والنجوم
والشمس معها قمر يقوم
قدره المهيمن القيوم
والحشر والجنة والنعيم
الا لأمر شأنه عظيم

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل :

ذكر من قال ذلك :

حدثنى محمد بن عمرو قال : حدثنا أبو عاصم قال : حدثنا عيسى عن ابن أبى نَجِيْح عن مجاهد فى قول الله « القيوم » قال : القائم على كل شىء .

حدثنى موسى قال : حدثنا عمرو قال : حدثنا أسباط عن أبيه عن الربيع : القيوم قيم كل شىء يكلؤه ويرزقه ويحفظه .

حدثنى موسى قال : حدثنا عمرو قال : حدثنا أسباط عن السدى : القيوم هو القائم .

حدثنى المثنى قال : حدثنا اسحاق قال : حدثنا أبو زهير عن جُوَيبر عن الضحاك : الحى القيوم القائم الدائم .

* * *

وقال فى تأويل قوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » .

يعنى تعالى ذكره بقوله : « لا تأخذه سنة » لا يأخذه نعاس فينعس ، ولا نوم فيستثقل نوما ، والوسن خثورة النوم ، ومنه قول عدى بن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فَرَنَّقَت

فى عينه سِـنَةٌ وليس بنائم

ومن الدليل على ما قلنا من أنها خثورة النوم فى عين الانسان قول الأعشى ميمون بن قيس :

تُعاطى الضجيعَ اذا أقبلت

بُعيدَ النعاس وقبل الوسَنْ

وقال آخر :

باكرتها الأعرابُ فى ســنة النو
م فتجرى خـلال شوك السيّال

يعنى عند هبوبها من النوم ووسن النوم فى عينها ، يقال وسن فلان فهو يوسن وسنا وسِنة وهو وسنان اذا كان كذلك (١) .

وبنحو الذى قلناه فى ذلك قال أهل التأويل .

ذكر من قال ذلك :

حدثنى المثنى قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثنى معاوية بن صالح عن أبى طلحة عن ابن عباس : قوله تعالى : « لا تأخذه سنة » السنة النعاس ، والنوم هو النوم .

حدثنى محمد بن سعد قال : حدثنى أبى قال : حدثنى عمى قال : حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس : « لا تأخذه سنة » السنة النعاس .

حدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرازق قال : أخبرنا معمر عن قتادة والحسن فى قوله : « لا تأخذه سنة » قالا : نعسة .

حدثنى المثنى قال : حدثنا عمرو بن عون قال : أخبرنا هشيم عن جُوَيْبِر عن الضحاك فى قوله : « لا تأخذه ســنة

---

(١) فى القاموس المحيط : الوسن والسنة شـــدة النوم . أو أوله أو النعـــاس ، ووســـن من باب فرح فهو وســـن ووسنان وميسان .

ولا نوم » قال : السنة الوسنة وهو دون النوم ، والنــوم الاستثقال .

حدثنى يحيى بن أبى طالب قال : أخــبرنا يزيد قال أخبرنا جُوَيبر عن الضحاك مثله سواء .

حدثنى موسى قال : حدثنا عمرو قال : حدثنا أسباط عن السدى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » أما سنة فهو ريح النوم الذى يأخذ فى الوجه فينعس الانسان .

حدثت عن عمار قال : حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع « لا تأخذه سنة ولا نوم » قال : السنة الوسنان بين النائم واليقظان .

حدثنى عباس بن أبى طالب قال : حدثنا منجــاب بن الحارس قال : حدثنا على بن مسهر عن اسماعيل عن يحيى ابن رافع « لا تأخذه سنة » قال : النعاس .

حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله : « لا تأخذه سنة ولا نوم » قال : الوسنان الذى يقوم من النوم لا يعقل حتى ربما أخذ السيف على أهله ، وانما عنى تعالى ذكره بقوله «لا تأخذه سنة ولا نوم» لا تحله الآفات ، ولا تناله العاهات ، وذلك أن السنة والنوم معنيان يغمران فهم ذى الفهم ، ويزيلان من أصاباه عن الحال التى كان عليها قبل أن يصيباه ، فتأويل الكلام اذا كان الأمر على ما وصفنا : الله لا اله الا هو الحى الذى لا يموت ، القيوم على كل ما هو دونه بالرزق والكلاءة والتــدبير والتصريف من

حال الى حال ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، لا يغيره ما يغير غيره ، ولا يزيله عما لم يزل عليه تنقل الأحوال ، وتصريف الليالى والأيام ، بل هو الدائم على حال ، والقيوم على جميع الأنام ، لو نام كان مغلوبا مقهورا ، لأن النوم غالب النائم قاهره ، ولو وسن لكانت السموات والأرض وما فيهما دكا لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته ، والنوم شاغل المدبر عن التدبير ، والنعاس يمنع المقدر عن التقدير بوسنه .

كما حدثنا الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرازق قال : أخبرنا معمر قال : وأخبرنى الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله : « لا تأخذه سنة ولا نوم » أن موسى سأل الملائكة ، هل ينام الله ؟ فأوحى الله الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ، ففعلوا ، ثم أعطوه قارورتين ، فأمسكوه ثم تركوه ، وحذروه أن يكسرهما ، فجعل ينعس وهما فى يديه ، فى كل يد واحدة ، وجعل ينعس وينتبه ، وينعس وينتبه ، حتى نعس نعسة ، فضرب باحداهما الأخرى فكسرهما . قال معمر : انما هو مثل ضربه الله ، يقول : فكذلك السموات والأرض فى يديه.

حدثنا اسحاق بن أبى اسرائيل . قال : حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى صلى الله عليه وسلم قال : وقع فى نفس موسى هل ينام الله تعالى ذكره ، فأرسل الله اليه ملكا فأرقه

ثلاثا ، ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما ، قال : فجعل ينام ، وتكاد يداه تلتقيان ، ثم يستيقظ فيحبس احداهما عن الأخرى ، ثم نام نومة ، فاصطفقت يداه ، وانكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا بأن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض [1].

٢ — التحرج من التفسير بالرأى

تجنب التفسير بالرأى ، وحمل على أصحابه .

والمراد بالرأى هنا توجيه التفسير الى آراء شخصية مجارية للأهواء السياسية والحزبية والجلسية والمذهبية وما شاكلها مما لا يقصد اليه القرآن الكريم .

وقد عقد الطبرى فصلا فى مقدمة تفسيره بهذا العنوان: « ذكر بعض الأخبار التى رويت بالنهى عن القول فى تفسير القرآن بالرأى » ذكر فى هذا الفصل أحاديث منها : من قال فى القرآن برأيه ، فليتبوأ مقعده من النار . ومنها : من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار . ومنها : من قال فى القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار . .

وذكر قول أبى بكر : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلنى اذا قلت فى القرآن ما لا أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى ٣/٦ .

وعلق الطبرى بقوله :

هذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا من أن ما كان من تأويل آى القرآن الذى لا يدرك علمه ، الا بنص بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بنصبه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل[1] فيه برأيه ، بل القائل فى ذلك برأيه — وان أصاب الحق فيه — فمخطىء فيما كان فعله بقيله فيه برأيه ، لأن اصابته ليست اصابة موقن أنه محق ، وانما هى اصابة خارص وظان ، والقائل فى دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم .

وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده ، فقال « قل انما حرّم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

فالقائل فى تأويل كتاب الله الذى لا يدرك علمه ، الا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جعل اليه بيانه ، قائل بما لا يعلم ، وان وافق قيله ذلك فى تأويله ما أراد الله به من معناه ، لأن القائل فيه بغير علم ، قائل على الله ما لا علم له به . وهذا هو معنى الخبر الذى حدثنا به العباس بن عبد العظيم العنبرى قال : حدثنا حبّان بن هلال قال : حدثنا سهَيل بن أبى حزم قال : حدثنا أبو عمران الجوينى

---

(١) القيل : القول .

عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ . يعنى صلى الله عليه وسلم أنه أخطأ فى فعله بقيله فيه برأيه ، وان وافق قيله ذلك عين الصواب عند الله ، لأن قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم أن الذى قال فيه من قول حق وصواب ، فهو قائل على الله ما لا يعلم ، آثم بفعله ما قد نهى عنه وحظر عليه(١).

٣ — دقة الاسناد

كان أمينا دقيقا فى ذكر السند وفى تسجيل أسماء الرواة، لأنه اتصل بكثير من العلماء ، وسمع منهم ، فاذا كان قد سمع هو وغيره قال حدثنا ، واذا كان قد سمع وحده قال حدثنى ، واذا نسى واحدا من سلسلة الرواية صرح بنسيان اسمه .

من الذين سمع منهم هو وغيره خلاد بن أسلم ، وأبو كريب ، ومحمد بن حميد الرازى ، وسعيد بن يحيى ابن سعيد الأموى . وعبيد الله بن محمد الغريابى ، واسماعيل ابن موسى السدى ، وابن البرقى ، والربيع بن سليمان ، ومحمد بن مرزوق ، ومحمد بن المثنى ، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعانى ، وعمرو بن عثمان العثمانى ، ويحيى ابن داود الواسطى ، وأحمد بن عبده الضبى ، وسعيد بن الربيع ، ومحمد بن بشار ، وغيرهم .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٧/١ .

ومن الذين سمع منهم وحده عبيد الله بن أسباط ، ويونس بن عبد الأعلى ، وأحمد بن منصور ، ومحمد بن أبي مخلد الواسطي ، والربيع بن سليمان ، وأبو السائب سالم بن جنادة السوائي ، محمد بن حميد الرازي . ويعقوب بن ابراهيم ، وسعيد بن الربيع ، وغيرهم . ويتبين من مقارنة الأسماء أنه كان يسمع من الشخص الواحد تارة في جماعة ، وتارة بمفرده .

وأحيانا يقول : حدثني بعض أصحابنا .

أما التصريح بنسيانه ففي مثل قوله : حدثنا أبو كريب قال : حدثني يحيي بن آدم قال : حدثنا اسرائيل عن أبي اسحاق عن فلان العبدي — قال أبو جعفر ذهب عني اسمه — عن سليمان بن صُرَد عن أبي كعب قال [1] :

ومن أمثلة رواياته قوله :

حدثنا يحيي بن طلحة اليربوعي قال : حدثنا شريك عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار [2] .

وقوله : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا يحيي بن سعيد قال : حدثنا سفيان قال : حدثنا عبد الأعلى عن ابن عامر الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي قال:

---

(١) التفسير ١/١١ .
(٢) التفسير ١/٢٧ .

من قال فى القرآن برأيه ، أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار[1] .

وقوله : حدثنى سملة عن محمد بن اسحاق عن أبى عتاب — رجل من تغلب كان نصرانيا عمرا من دهره ثم أسلم بعد ، فقرأ القرآن وفقه فى الدين ، وكان فيما ذكر أنه كان نصرانيا أربعين سنة ، ثم عمر فى الاسلام أربعين سنة— قال [2]

٤ ـ الاستعانة بعلمه باللغة

وقد مكنه علمه باللغة وأساليب استعمالها أن يفضل معنى للكلمة على معنى آخر تحتمله .

١ — فقال فى قوله تعالى :

«وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل».

ان الأبابيل المتفرقة يتبع بعضها بعضا من نواح شتى ، او هى الكثيرة المتتابعة .

وذكر الآراء فى معنى (سجيل) أهو الطين فى حجارة أم الطين ، أم الكلمة فارسية معناها حجر وطين ، وأصلها (سنك وكل) ثم قال : وقال آخرون : ان معنى سجيل السماء الدنيا .

---

(١) التفسير ١/٢٧ .

(٢) التفسير ١٥/٣٣ ، ٣٤

وعلق على ذلك بقوله : وهذا القول لا نعرف لصحته وجها فى خبر ولا عقل ولا لغة ، وأسماء الأشياء لا تدرك الا من لغة سائرة ، أو خبر من الله تعالى[1] .

٢ — وقال فى قوله تعالى :

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا » .

يعنى بالبروج القصور . وبعد أن أورد آراء فى معنى البروج قال : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال: هى قصور فى السماء[2] ، لأن ذلك فى كلام العرب . ومنه : « ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

ومنه قول الأخطل :

كأنها برج رومى يشيّده
بانٍ بِجصٍ وآجرٍ وأحجار[3]

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

قال أبو جعفر : لعلكم تتقون بعبادتكم ربكم الذى خلقكم ، وطاعتكم اياه فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، واقراركم له بالعبادة ، لتتقوا سخطه وغضبه أن يحل عليكم، وتكونوا من المتقين الذين رضى عنهم ربهم .

---

(١) التفسير ١٩٣/٣٠ .

(٢) لست أدرى لماذا خصها بأنها فى السماء ، مع أنه سيذكر بعد سطر واحد بيتا للأخطل يدل على أن البرج الحصن.

(٣) التفسير ١٩/١٩ .

فان قال قائل : فكيف قال جل ثناؤه « لعلكم تتقون » أولم يكن عالما بما يصير اليه أمرهم اذا هم عبدوه وأطاعوه حتى قال لهم لعلكم اذا فعلتم ذلك أن تتقوا ، فأخرج الخبر عن عاقبة عبادتهم اياه مخرج الشك ؟

قيل له : ذلك على غير المعنى الذى توهمت ، وانما معنى ذلك اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لتتقوه بطاعته وتوحيده وافراده بالربوبية والعبادة ، كما قال الشاعر :

وقلتم لنا كفّوا الحروب لعلنا
نكف ووثّقتم لنا كل مَوثِق
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم
كلمح سراب فى الفلا متألق

يريد بذلك : قلتم لنا كفوا لنكف ، وذلك أن لعل فى هذا الموضع لو كان شكا لم يكونوا وثقوا لهم كل موثق[1] .

٥ — الإكثار من الأحاديث النبوية

وكان يكثر من الأحاديث النبوية ، لأنه درس الحديث على كبار المحدثين فى عصره ، وفى مقدمتهم علماء طبرستان .

وهذه أمثلة من استدلاله بالحديث :

١ — فى بيان اللغة التى نزل بها القرآن روى عن خلاد بن

(١) التفسير ١/١٢٥ .

اسلم عن أنس بن عياض عن أبى حازم عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، فالمراء فى القرآن كفر — ثلاث مرات — فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه(١).

٢ — وفى تأويل قوله تعالى :

« ولا يؤخذ منها عدل » .

قال أبو جعفر : العدل فى كلام العرب الفدية ، ثم ذكر الحديث الشريف : حدثنى نجيح بن ابراهيم قال : حدثنا على ابن حكيم قال : حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائى عن رجل من بنى أمية من أهل الشام ، أحسن عليه الثناء قال : قيل يا رسول الله ما العدل ؟ قال : العدل الفدية .

وانما قيل للفدية من الشىء والبدل منه عدل لمعادلته اياه وهو من غير جنسه (٢)

(١) رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٠٠ طبعة الحلبى) عن أنس بن عياض ، ورواه ابن حبان فى صحيحه (رقم ٧٣ بشرح أحمد شاكر) عن أبى ليلى عن أبى خثيمة عن أنس بن عياض . ونقله ابن كثير فى تفسيره (٢/١٠٢) عن مسند أبى يعلى . وفى فضائل القرآن (٦٣) عن مسند أحمد . وهو فى مجمع الزوائد ٧/١٥١ . ونسبه ابن كثير فى الفضائل للنسائى، والظاهر أنه يريد كتاب التفسير للنسائى (تفسير الطبرى ١/٢٣ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر).

(٢) نقله عن الطبرى ابن كثير ١/١٦١ والسيوطى ١/٦٨ ولم أجده عن غير الطبرى (تفسير الطبرى ٢/٣٤ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر) .

٣ — وفى تأويل قوله تعالى :

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانىّ » . .

قال : يعنى بالأميين الذين لا يكتبون ولا يقرأون ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب (١) .

٤ — وفى تأويل قوله تعالى :

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثَمّ وجهُ الله » .

استطرد فذكر عن ابن بشار عن هشام بن معاذ عن أبيه عن قتادة أن النبى قال : ان أخاكم النجاشى قد مات ، فصلوا عليه . قالوا : نصلى على رجل ليس بمسلم ؟ فنزلت الآية (وان من أهل الكتاب لمَنْ يؤمن بالله ، وما أنزل اليكم ، وما أنزل اليهم خاشعين لله) (٢) .

٥ — وفى تأويل قوله تعالى :

« الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

---

(١) رواه البخارى ٤/١٠٨ ورواه مسلم وأبو داود والنسائى كما فى الجامع الصغير للسيوطى رقم ٢٥٢١ (تفسير الطبرى ٢/٢٥٧ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر) .

(٢) هو حديث ضعيف لأنه مرسل ، وقد نقله السيوطى ١/١٠٩ ونسبه لابن جرير وابن المنذر ونقله ابن كثير ١/٢٩١ عن هذا الموضع ثم قال : هذا غريب وأقول : سياقته تدل على ضعفه ونكارته . (تفسير الطبرى ٤/٥٣٣ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر) .

ذكر أن المراد بالظلم الشرك ، وروى عن أبى كريب عن ابن ادريس عن الأعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ، فقال رسول الله : ألا ترون الى قول لقمان « ان الشرك لظلم عظيم » ثم رواه من طرق أخرى (١) .

٦ — وفى تأويل قوله تعالى :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

روى عن محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور عن معمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله الا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جبينه وجبهته وظهره (٢) .

---

(١) رواه أبو جعفر من طرق ، ورواه البخارى فى صحيحه (الفتح ١ : ٨١ / ٨ : ٢٢٠) ورواه مسلم فى صحيحه ١٤٣/٢ ورواه الترمذى فى كتاب التفسير ، ورواه أحمد من طرق فى مسنده (تفسير الطبرى ٤٩٤/١١ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر) .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم فى صحيحه ٦٧/٧ من طريق آخر . ورواه أحمد فى مسنده رقم ٧٥٥٣ من طريقين آخرين (تفسير الطبرى ٢٢٤/١٤ تحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر) .

٦ — الاستشهاد بالشعر

وكثيرا ما اعتمد على الشعر فى بيان المعنى المراد من الكلمة ، تارة يذكر اسم الشاعر ، وتارة يذكر النص الشعرى مجردا من الاسم .

وكذلك كان ابن عباس يستعين على التفسير بالشعر ، فقد كان يسأل عن الشىء من القرآن فيقــول فيه كذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا ، وكان يقول اذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه فى الشعر ، فانه ديوان العرب . وذكر سعيد بن جبير أنه ما سمع ابن عباس فسر آية من كتاب الله الا استشهد ببيت من الشعر (١) .

وقد سبق فى ثقافته أنه كان عالما باللغة والشعر ، وأنه أملى بمصر شعر الطرماح ، وشرحه وفسر ما فيه من الغريب ، وكتبه عنه ابن السراج وغيره .

والأمثلة على استدلاله بالشعر كثيرة .

١ — منها استدلاله على أن السورة المنزلة من الارتفاع ، بقول النابغة الذبيانى :

ألم تر أن الله أعطاك ســورة
ترى كل ملك دونهــا يتــذبذب

أى أعطاك منزلة من منــازل الشرف التى قصرت عنها

---

(١) شرح الحماسة للتبريزى ١/٣ .

منازل الملوك . ثم قال ان بعضهم همز السورة من القرآن ، وتأويلها اذا القطعة التى فصلت من القرآن عما سواها وأبقيت ، ومن ذلك قول أعشى بنى ثعلبة يصف امرأة فارقته، فأبقت فى قلبه من وجدها بقية :

فبانت وقد أسأرت فى الفؤا

د صدعا على نأيها مستطيرا

وقال الأعشى فى ذلك :

بانت وقد أسأرت فى النفس حاجتها

بعد ائتلاف وخير الود ما نفعا

٢ — واستأنس بالشعر فى معنى كلمة آية .

قال : وأما الآية من القرآن ، فانها تحتمل وجهين فى كلام العرب :

أحدهما : أنها سميت آية ، لأنها علامة يعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤه ، كالآية التى تكون دلالة على الشىء يستدل بها عليه ، كقول الشاعر :

ألكنى اليها عمرك الله يافتى

بآية ما جاءت الينا تهاديا(١)

ومنه قوله جل ذكره : « ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك » أى علامة منك لاجابتك دعاءنا .

---

(١) ألكنى اليها . بلغ رسالتى اليها .

والآخر القصة ، كما قال كعب بن زهير بن أبى سلمى :

ألا أبلغا هذا المعرض آية
أيقظان قال القول اذ قال أم حلم ؟

يعنى بقوله آية : رسالة منى وخبرا عنى ، فيكون معنى الآيات : القصص ، قصة تتلو قصة بفصول ووصول[1] .

٣ — وفى قوله تعالى :

« أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة أولئك يؤمنون به » .

قال : فى الكلام محذوف قد ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ذكر عليه منه ، وهو : أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ، كمن هو فى الضلالة متردد لا يهتدى لرشد ؟ والعرب تفعل ذلك كثيرا اذا كان فيما ذكرت دلالة على مرادها على ما حذفت ، وذلك كقول الشاعر :

وأقسم لو شىء أتانا رسوله
سواك ولكن لم نجد لك مدفعا[2]

٤ — ومنها فى قوله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض » .

أورد آراء مختلفة فى معنى الكرسى ، ثم رجح أنه العلم ، وقال : أصل الكرسى العلم ، ومنه قيل

(١) التفسير ١/٣٦ .
(٢) التفسير ١٢/١٢ .

للصحيفة يكون فيها علم مكتوب كراسة ، ومنه قول الراجز فى صفة قانص :

حتى اذا ما اجتازها تكرسا .

يعنى : علم . ومنه يقال للعلماء الكراسى ، لأنهم المعتمد عليهم ، كما يقال أوتاد الأرض ، يعنى بذلك أنهم العلماء الذين تصلح بهم الأرض .

ومنه قول الشاعر :

يَحفُّ بهم بيضُ الوجوه وعصبةٌ
كراسيُّ بالأحداث حين تنوب

يعنى بذلك علماء بحوادث الأمور ونوازلها .

والعرب تسمى أصل كل شىء الكرسى ، يقال منه : فلان كريم الكرسى أى كريم الأصل . قال العجاج :

قد علم القدُّوس مولى القدْسِ
أن أبا العباس أولى نَفسِ
بمعدن الملك الكريم الكرسى(١)

٥ — ومنها فى قوله تعالى « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » . ومن يتعلق بأسباب الله ويتمسك بدينه وطاعته فقد وفق الى طريق واضح ومحجة مستقيمة غير معوجة .

---

(١) التفسير ٣/٨ من معانى الكرسى : السرير والعلم (القاموس المحيط) والملك والعلم (أساس البلاغة) .

وأصل العصم المنع ، فكل مانع شيئا فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ، ومنه قول الفرزدق :

أنا ابن العاصمين بنى تميم
اذا ما أعظمُ الحدثان نابا

ولذلك قيل للجبل عصام ، وللسبب الذى يتسبب به الرجل الى حاجته عصام ، ومنه قول الأعشى :

الى المرء قيس أطيل السُّرى
وآخذ من كل حَىٍّ عِصَمْ

يعنى بالعصم الأسباب ، أسباب الذمة والأمان ، يقال منه اعتصمت بحبل من فلان ، واعتصمت حبلا منه ، واعتصمت به ، واعتصمته ، وأفصح اللغتين ادخال الباء ، كما قال عز وجل « واعتصموا بحبل الله جميعا » .

وقد جاء اعتصمته ، كما قال الشاعر :

اذا أنت جازيت الاخاء بمثله
وآسيتنى ثم اعتصمت حباليا(١)

٦ — ومنها فى قوله تعالى : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

يعنى : وكنتم يا معشر المؤمنين من الأوس والخزرج على حرف حفرة من النار ، وانما ذلك مثل لكفرهم الذى كانوا

---

(١) التفسير ٤/١٩ .

عليه قبل أن يهديهم الله للاسلام ، ويصيروا بائتلافهم عليه اخوانا .. وشفا الحفرة طرفها وحرفها ، مثل شـفا الرَّكيَّة والبئر .

ومنه قول الراجز :

نحن حفـرنا للحجيج سَجْلَهْ
نابتـة فـوق شـفاها بقـله

يعنى فوق حرفها .

وقال : فأنقذكم منها ، يعنى فأنقذكم من الحفرة ، فرد الخبر الى الحفرة ، لأن الشفا من الحفرة ، فجاز ذلك . كما قال جرير بن عطية :

رأت مر السنين أخـذن منى
كما أخذ السِّرار من الهلال

فذكر مر السنين ، ثم رجع الى الخبر عن السنين .

وكما قال العجاج :

طول الليـالى أسرعت فى نقضى
طَوين طولى وطوين عرضى(١)

٧ — ومنها فى قوله تعالى « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه » أى هين عليه .

وقد وجه غير واحد من أهل العربية قول ذى الرمة :

---

(١) التفسير ٤/٢٥ .

اخى قفــرات دَبَّبتْ فى عظــامه
شفافات أعجاز الكرى فهو أخضع[1]
الى أن أخضع بمعنى « خاضع » .
وقول الآخر :
لعمرك أن الزبرقان لباذل
لمعروفه عند السنين وأفضل
كريم له عن كل ذم تأخــر
وفى كل أسباب المكارم أول
الى أنه بمعنى فاضل .
وقول معن :
لعمرك ما أدرى وانى لأوجل
على أينا تعــدو المنيــة أول
الى أنه بمعنى وانى لوجل .
وقول الآخر :
تمنى مرىء القيس موتى وان أمت
فتــلك ســبيل لست فيهــا بأوحــد
الى أنه بمعنى لست فيها بواحد .
وقول الفرزدق :
ان الذى سمك السماء بنى لنا
بيتــا دعائمــه أعــز وأطــول

(١) دببت شفافات أعجاز الكرى : بقــايا أواخر النوم .
اخضع : منكسر .

الى أنه بمعنى عزيزة طويلة :

ومنه قولهم فى الأذان الله أكبر بمعنى الله كبير(١) .

٨ — ومنها فى قوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » .

يعنى تعالى ذكره يعمل الجن لسليمان ما يشاء من محاريب ، وهى جمع محراب ، والمحراب مقدم كل مسجد وبيت ومصلى .

ومنه قول عدى بن زيد :

كدمى العاج فى المحاريب أو كالـ
بيض فى الروض زهره مستنير

والجوابى جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تروح على نادى المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقى تفهق

وكما قال آخر :

فصبحت جابية صهارجا
كأنها جلد السماء خارجا(٢)

٩ — ومنها فى قوله تعالى «انا خلقناهم من طين لازب» انا خلقناهم من طين لاصق ، وانما وصفه جل ثناؤه

---

(١) التفسير ٢١/٢٥ . وفى بيت الأعشى رواية (السيح) خير من (الشيخ) .

(٢) التفسير ٢٢/٤٩ .

باللزوب ، لأنه تراب مخلوط بماء ، والتراب اذا خلط بماء صار طينا لازبا .

والعرب تبدل أحيانا هذه الباء ميما فتقول طين لازم . ومنه قول النجاشى الحارثى :

بنى اللؤم بيتا فاستقر عماده

عليكم بنى النجار ضَرْبَةَ لازم

ومن اللازب قول نابغة بنى ذبيان :

ولا تحسبون الخير لا شر بعده

ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وربما أبدلوا الزاى التى فى اللازب تاء فيقولون طين لاتب .

وذكر أن ذلك فى قيس ، زعم الفراء أن أبا الجراح أنشد :

صداع وتوصيم العظام وفترة

وغَثْى مع الاشراق فى الجوف لاتب

بمعنى لازم(١) .

١٠ — ومنها فى تفسير قوله تعالى « فى جيدها حبل من مسد » .

قال : فى عنقها ، والعرب تسمى العنق جيدا ، ومنه قول ذى الرمة :

(١) التفسير ٢٣/٢٨ .

فعيناك عيناها ولونك لونها

وجيدك الا أنها غير عاطل(١)

وذكر الآراء المختلفة فى معنى مَسد ، أهى حبال تكون بمكة ، أم حبال من شجر تنبت باليمن ، أم حبل من نار ، أم حبل من ليف ، أم سلسلة من حديد ، أم المسد الحديد الذى يكون فى البكرة ، أم قلادة من ودع فى عنقها .

ثم قال : وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب قول من قال حبل جمع من أنواع مختلفة ، ولذلك اختلف أهل التأويل على النحو الذى ذكرنا .

ومما يدل على صحة ما قلنا فى ذلك قول الراجز :

ومسَد أمرّ من أيانق

صُهْب عِتاق ذات مخ زاهق

فجعل امراره من شتى ، وكذلك المسد الذى فى جيد امرأة أبى لهب أمِرّ من أشياء شتى ، من ليف وحديد ولحاء ، وجعل فى عنقها طوقا كالقلادة من ودع . ومنه قول الأعشى :

نمشى فنضرب بابها من دوننا

علقا صريف محالة الأمساد

يعنى بالأمساد جمع مسد وهى الحبال (٢) .

---

(١) التفسير ٣٠/٢٢٠ .

(٢) التفسير ٣٠/٢٢٠ .

٧ — تسجيل القراءات

وقد عرض وجوه القراءات ، ورجح ما ارتضاه ، لأنه كان عالما بالقراءات مؤلفا فيها .

١ — من هذا ما ذكره فى قوله تعالى :

« ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا انها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم . والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » .

روى عن عمر فى ذلك ما حدثنى به أحمد بن يوسف قال : حدثنا القاسم قال : حدثنا حجاج عن هارون عن حبيب ابن الشهيد وعن ابن عامر الأنصارى أن عمر بن الخطاب قرأ « والسابقون الأولون من المهاجرين ، والأنصار الذين اتبعوهم باحسان » فرفع الأنصار ولم يلحق الواو فى الذين فقال له زيد بن ثابت : « والذين اتبعوهم باحسان » فرفع الأنصار ، فقال عمر : « الذين اتبعوهم باحسان » فقال زيد : أمير المؤمنين أعلم . فقال عمر : أئتونى بأبى بن كعب ، فأتاه ، فسأله عن ذلك ، فقال أبى : « والذين اتبعوهم باحسان » فقال عمر : اذا تتابع أبيا .

والقراءة على خفض الأنصار عطفا بهم على المهاجرين .

وقد ذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرأ الأنصار بالرفع عطفا بهم على « السابقون » .

والقراءة التى لا أستجيز غيرها الخفض فى الأنصار ، لاجماع الحجة من القراء عليه ، وأن السابق كان من الفريقين جميعا من المهاجرين والأنصار ، وانما قصد الخبر عن السابق من الفريقين دون الخبر عن الجميع ، والحاق الواو فى « الذين اتبعوهم باحسان » لأن ذلك كذلك فى مصاحف المسلمين جميعا .

على أن التابعين باحسان غير المهاجرين والأنصار ، وأما السابقون فانهم مرفوعون بالعائد من ذكرهم فى قوله « رضى الله عنهم ورضوا عنه »(١) .

٢ — وفى قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

قال : اختلف القراء فى قراءة قوله : « أفمن أسس بنيانه » فقرأ بعض قراء أهل المدينة « أفمن أُسِّسَ بُنْيَانُه .. أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار » على وجه ما لم يسم فاعله فى الفعلين كليهما . وقرأت عامة قراء الحجاز والعراق « أفمن أَسَّسَ بنيانه .. » بالبناء للمعلوم فى الفعلين .

وهما قراءتان متفقتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارىء

---

(١) التفسير ١١/٧ .

فمصيب ، غير أن قراءته بتوجيه الفعل الى مَن اذ كان مَن المؤسِّس أعجب اليّ . وتأويل الكلام اذا أى هؤلاء الذين بنوا المساجد خير : الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتقاء الله ، وأداء فرائضه ، ورضا من الله لبنائهم ، أم الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على نفاق وضلال ، وعلى غير بصيرة منهم بصواب فعلهم من خطئه . وقد مثل هذا بمن يبنى على حرف ركيّة لا تلبث السيول أن تهدم بناءه وتنثره ، فانتثر الجرف الهارى ببنائه فى نار جهنم (١) .

٣ — وفى قوله تعالى : « قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده ، فعميت عليكم أنلزمكموها ، وأنتم لها كارهون » قال : « اختلف القراء فى ذلك ، فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض أهل البصرة والكوفة « فعَمِيت عليكم » بفتح العين وتخفيف الميم ، بمعنى فعميت الرحمة عليكم ، فلم تهتدوا لها ، فتقروا بها ، وتصدقوا رسولكم عليها .

وقرأ عامة قراء الكوفيين « فعُمِّيت عليكم » بضم العين وتشديد الميم ، اعتبارا منهم ذلك بقراءة عبد الله ، وذلك أنها فيما ذكر فى قراءة عبد الله فعمّاها عليكم . وأولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب قراءة من قرأ « فعميت عليكم » بضم العين وتشديد الميم للذى ذكروا من

---

(١) التفسير ١١/٢٤

العلة لمن قرأ به ، ولقربه من قوله : « أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده » فأضاف الرحمة الى الله ، فكذلك تعميته على الآخرين بالاضافة اليه أولى(١) .

٤ — وفى قوله تعالى « فلما بلغ معه السعى قال : يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترىٰ » .

اختلف القراء فى قراءة قوله « ماذا ترى » فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة وبعض قراء أهل الكوفة بفتح التاء ، بمعنى أى شيء تأمر ، أو فانظر ما الذى تأمر . وقرأ عامة قراء الكوفة « ماذا ترى » بضم التاء ، بمعنى ماذا تشير ، وماذا ترى من صبرك ، أو جزعك من الذبح ؟

والذى هو أولى القراءتين فى ذلك عندى بالصواب قراءة من قرأ ماذا ترى بفتح التاء بمعنى ماذا ترى من الرأى . فان قال قائل : أو كان ابراهيم يؤامر ابنه فى المعنى لأمر الله والانتهاء الى طاعته ؟ قيل : لم يكن ذلك من مشاورة لابنه فى طاعة الله ، ولكنه كان منه ليعلم ما عند ابنه من العزم ، هل هو من الصبر على أمر الله على مثل الذى هو عليه فيسر بذلك أم لا ، وهو فى الأحوال كلها ماض لأمر الله (٢) .

٥ — وفى قوله تعالى « ما ننزل الملائكة الا بالحق ، وما كانوا اذا منظرين » ذكر أن عامة قراء المدينة والبصرة

---

(١) التفسير ١٢/١٨ .

(٢) التفسير ٢٣/٥٠ .

قرأوا « ما تنزل الملائكة » على أن الفعــل مبنى للمعلوم والملائكة فاعل .

وعامة قراء الكوفة قرأوا « ما نُنَزِّل الملائكة » على أن الفعل بالنون والملائكة مفعول .

وبعض قراء الكوفة قرأوا « ما تُنزَّل الملائكةُ » على أن الفعل مبنى للمجهول والملائكة نائب فاعل .

وعلق بقوله :

قال أبو جعفر : كل هذه القراءات الثــلاث متقاربات المعانى ، لأن الملائكة اذا أنزلها الله على رسول من رســله تنزلت اليه ، واذا تنزلت اليه فانما تنزل بانزال الله اياها اليه ، وان كنت أحب للقارىء ألا يعدو احدى القراءتين اللتين ذكرت من قراءة أهل المدينة ، والأخرى التى عليها جمهور قراء الكوفيين ، لأن ذلك هو القراءة المعروفة فى العامة ، والقراءة الثالثة شاذة قليل من قرأ بها [١] .

٦ — وفى قوله تعالى : « وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » اختلف القراء فى قراءة حمالة الحطب ، فقرأ عامة قراء المدينة والكوفة والبصرة حمالة بالرفع ، غير عبد الله بن أبى اســحاق ، فانه قرأ بالنصب فيما ذكر لنــا عنه ، واختلف فيه عن عاصم ، فحكى عنه الرفع فيها والنصب، وكأن من رفع ذلك جعله من نعت المرأة ، وجعل الرافع للمرأة ما تقدم من الخبر وهو « سيصلى » .

(١) التفسير ١٤/٦ .

وقد يجوز أن يكون رافعها الصفة ، وذلك قوله « فى جيدها » وتكون حمالة نعتا للمرأة . وأما النصب فعلى الذم ، وقد يحتمل أن يكون نصبها على القطع من المرأة لأن المرأة معرفة ، وحمالة الحطب نكرة .

والصواب من القراءة فى ذلك عندنا الرفع ، لأنه أفصح الكلامين فيه ، ولاجماع الحجة من القراء عليه[1] .

٨ — العناية بالاعراب

وكان يلجأ الى الاعراب ، ويفصل مذاهب النحاة فى كثير من المواضع ، ليجلو المعنى .

فقال فى قوله تعالى :

« قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » .

اختلف أهل العربية فى موضع « مَنْ » فى هذا الموضع .

فقال بعض نحويى الكوفة : هو فى موضع نصب ، لأن المعصوم بخلاف العاصم ، والمرحوم معصوم ، كأن نصبه بمنزلة قوله « ما لهم به من علم الا اتباعَ الظن » ومن استجاز « اتباعُ الظن » والرفع فى قوله :

وبلدة ليس بها أنيسُ
الا اليعافيرُ والا العيسُ

(١) التفسير ٣٠/٢١٩ .

لم يجز له الرفع فى « مَنْ » لأن الذى قال الا اليعافير ، جعل أنيس البر اليعافير ، وما أشبهها ، وكذلك قوله « الا اتباع الظن » يقول علمهم ظن ، وأنت لا يجوز لك فى وجه أن تقول المعصوم هو عاصم فى حال ، ولكن لو جعلت العاصم فى تأويل معصوم لجاز رفع « من » . قال : ولا ينكر أن يخرج المفعول على فاعل ، ألا ترى قوله « من ماء دافق » معناه والله أعلم مدفوق ، وقوله « فى عيشة راضية » معناها مرضية ، قال الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

ومعناها المكسو .

وقال بعض نحويى البصرة : « الا من رحم » على لكن من رحم ، ويجوز أن يكون على تأويل لا ذا عصمة أى لا معصوم ، ويكون « من » على الرفع بدلا من عاصم .

وعلق الطبرى بقوله :

ولا وجه لهذه الأقوال التى حكينا عن هؤلاء ، لأن كلام الله تعالى انما يوجه الى الأفصح الأشهر من كلام من نزل بلسانه ، ما وجد الى ذلك سبيل ، ولم يضطرنا شىء الى أن نجعل عاصما فى معنى معصوم ، ولا أن نجعل الا بمعنى لكن ، اذ كنا نجد لذلك مخرجا صحيحا ، وهو ما قلنا من أن معنى ذلك قال نوح لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحمنا ، فأنجانا من عذابه ، كما يقال ، لا منجى اليوم من

عذاب الله الا الله ، ولا مطعم اليوم من طعام زيد الا زيد ، فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم[1] .

ولست أرى حاجة الى مزيد من التمثيل لعنايته بالاعراب

٩ — مناقشة الآراء الفقهية

واذ كان الطبرى فقيها دارسا للمذاهب كلها ، وصاحب مؤلفات فى الفقه ، ومجتهدا صاحب مذهب اختاره لنفسه ، صار من البديهى أن يعرض للاراء الفقهية ويناقشها فى مناسباتها من الآيات القرآنية ، وينتهى من المناقشة الى ما يستصوبه .

١ — من هذا ما ذكره فى تفسير قوله تعالى :

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

اختلف أهل العلم فى المرض الذى أباح الله معه الافطار ، وأوجب معه عدة من أيام أخر ، فقال بعضهم : هو المرض الذى لا يطيق صاحبه معه القيام لصلاته ، وقال بعضهم : هو كل مرض كان الأغلب من أمر صاحبه بالصوم الزيادة فى علته زيادة غير محتملة .

---

(١) التفسير ٢٨/١٢ .

وعلق بقوله : والصواب عندنا أن المرض الذى أذن الله تعالى بالافطار معه فى شهر رمضان مرض من كان الصوم جاهده جهدا غير محتمل ، فكل من كان كذلك فله الافطار ، وقضاء عدة من أيام أخر .

وذلك أنه اذا بلغ ذلك الأمر ، فان لم يكن مأذونا له فى الافطار فقد كلف عسرا ، ومنع يسرا ، وذلك غير الذى أخبر الله أنه أراده بخلقه بقوله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وأما من كان الصوم غير جاهده فهو بمعنى الصحيح الذى يطيق الصوم ، فعليه أداء فرضه .

واختلف أهل العلم فيمن كان مريضا أو على سفر فصام الشهر وهو ممن له الافطار ، أيجزيه ذلك من صيام عدة من أيام أخر أو غير مجزية ؟ وهل لمن كان مريضا أو على سفر صيام شهر رمضان ، أم ذلك محظور عليه ، وغير جائز له صومه ، والواجب عليه الافطار فيه حتى يقيم أو يبرأ ؟

ثم أورد آراء العلماء مفصلة ، ملخصها أن بعضهم رأى أن الافطار فى المرض عزيمة من الله واجبة وليس بترخيص ، ولهذا رووا أن عمر أمر رجلا صام فى سفر أن يعيد صومه ، وعلتهم أن الله تعالى فرض بقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » صوم شهر رمضان على من شهده مقيما غير مسافر ، وجعل على من كان مريضا أو مسافرا صوم عدة من أيام أخر ، غير أيام شهر رمضان ، وكما لا يجوز للمقيم أن يفطر ، ويصوم عدة أيام أخر ، لا يجوز للمسافر الصيام ،

واحتجوا أيضا بحديث روى عن رسول الله « الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر » .

وبعضهم رأى أن الافطار فى السفر رخصة من الله تعالى رخصها لعباده ، والفرض الصوم ، فمن صام فرضه أدى ، ومن أفطر فبرخصة الله له أفطر ، وان صام فى سفر فلا قضاء عليه اذا أقام .

واستدل هؤلاء بأن عائشة كانت تصوم ، وأن ابن عمر كان لا يصوم ، واستدلوا بآثار أخرى .

وعلق على هذا بقوله :

وهذا القول عندنا أولى بالصواب ، لاجماع الجميع على أن مريضا لو صام شهر رمضان وهو ممن له الافطار لمرضه فصومه مجزىء عنه ، ولا قضاء عليه اذا برىء من مرضه ، فكان معلوما بذلك أن حكم المسافر حكمه فى أنه لا قضاء عليه ان صامه فى سفره ، لأن الذى جعل للمسافر من الافطار ، وأمر به من قضاء عدة من أيام أخر ، مثل الذى جعل من ذلك للمريض أو أمر به من القضاء .

ثم فى دلالة الآية كفاية مغنية عن استشهاد شاهد على صحة ذلك بغيرها ، وذلك قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ولا عسر أعظم من أن يلزم من صامه فى سفره عدة من أيام أخر ، وقد تكلف أداء فرضه فى أثقل الحالين عليه حتى قضاه وأداه .

فان ظن ذو غباوة أن الذى صامه لم يكن فرضه

الواجب ، فان فى قول الله تعالى ذكره « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ... شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن» ما ينبىء أن المكتوب صومه من الشهور على كل مؤمن هو شهر رمضان مسافرا كان أو مقيما . وأما قوله « من كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » فمعناه أن من كان مريضا أو على سفر فأفطر برخصة الله فعليه صوم عدة أيام أخر مكان الأيام التى أفطر فى سفره أو مرضه .

ثم فى تظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله اذ سئل عن الصوم فى السفر : « ان شئت فصم ، وان شئت فأفطر » الكفاية الكافية عن الاستدلال على صحة ما قلنا .

وبعد أن ذكر الطبرى رواية الحديث قال :

ففى هذا مع نظائره من الأخبار التى يطول باستيعابها الكتاب الدلالة الدالة على صحة ما قلنا من أن الافطار رخصة لا عزم ، والبيان الواضح على صحة ما قلناه فى تأويل قوله : « من كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

فان قال قائل : فان الأخبار بما قلت وان كانت متظاهرة فقد تظاهرت أيضا بقوله « ليس من البر الصيام فى السفر » قيل ان ذلك اذا كان الصيام فى مثل الحال التى قال فيها رسول الله ذلك ، اذ رأى رجلا فى سفره قد ظلل عليه ، وعليه جماعة ، فقال : من هذا ؟ قالوا : صائم . قال : « ليس من البر الصوم فى السفر » . فمن بلغ منه الصوم ما بلغ من الذى

قال له النبى ذلك فليس من البر صومه ، لأن الله تعـالى قد حرم على كل أحد تعريض نفسه لما فيه هلاكها ، وله الى نجاتها سبيل .

وانما يطلب البر بمـا ندب الله اليـه ، وحض عليه من الأعمال ، لا بما نهى عنه .

وأما ما روى عن النبى من قوله « الصائم فى السفر كالمفطر فى الحضر » .

فقد يحتمل أن يكون قيل لمن بلغ منه الصوم ما بلغ من هذا الذى ظلل عليه ، ان كان النبى قد قال ذلك .

وغير جائز أن يضاف الى النبى هذا القول ، لأن الأخبار التى جاءت بذلك واهية الأسانيد ، لا يجوز الاحتجاج بها فى الدين (١) .

٢ — وكذلك ناقش الفقهاء فى المراد بمسح الرأس فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصـلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ، وامسـحوا برءوسـكم وأرجلكم الى الكعبين » .

قال : اختلف أهل التأويل فى صفة المسح ، فقال بعضهم امسحوا بما بدا لكم أن تمسحوا به من رءوسكم بالماء اذا قمتم الى الصلاة ، كأن يمسح مقدم الرأس الى الوجه ، أو يمسح يافوخه ، أو يمسح شعره ، أو أى جانب من رأسه .

---

(١) التفسير ١/٨٧ — ٩١ .

وقال آخرون ان المسح لجميع الرأس .

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : لا يجزىء مسح الرأس بأقل من ثلاث أصابع .

وعلق بقوله : والصواب أن الله أمر بالمسح ، ولم يحدد حدا لا يجوز التقصير عنه ، ولا مجاوزته ، واذا كان ذلك كذلك فما مسح به المتوضىء رأسه ، فاستحق أن يقال انه مسح برأسه فقد أدى ما فرض الله عليه من مسح ذلك ، لدخوله فيما لزمه اسم ماسح برأسه اذا قام الى صلاته .

فان قال قائل : ان الله قد قال فى التيمم « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » أفيجزىء المسح ببعض الوجه واليدين فى التيمم ؟

قيل له : كل ماسح به من ذلك فى التراب فيما تنازعت فيه العلماء . فقال بعضهم يجزيه ذلك من التيمم ، وقال بعضهم لا يجزيه ، لما جاءت به الحجة نقلا عن نبيها صلى الله عليه وسلم . ولا حجة لأحد علينا فى ذلك اذا كان من قولنا أن ماجاء فى آى الكتاب عاما فى معنى فالواجب الحكم به على عمومه ، حتى يخصه ما يجب التسليم له ، فاذا خص منه شىء كان ماخص منه خارجا من ظاهره ، وحكم سائره على العموم . وقد بينا العلة الموجبة صحة القول بذلك فى غير هذا الموضع بما أغنى عن اعادته هنا (١)

---

(١) التفسير ٦/٧٩ .

٣ — وقد ذهب الى أن المراد مسح الرجلين فى الوضوء، لأن الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين » قرئت فيها كلمة الأرجل بالنصب عطفا على كلمة الوجوه ، وقرئت بالجر عطفا على كلمة الرءوس ، والعطف على الرءوس أولى ، لأنها أقرب ، هذا دليل .

وله دليل آخر لا يسلم من تكلف وتمحل ، هو أن المسح بالماء فى حقيقته غسل .

قال : اختلف القراء ، فقرأ جماعة من قراء الحجاز والعراق « وأرجلكم » بالنصب على أنه من المؤخر الذى معناه التقديم ، وتكون الأرجل معطوفة على الأيدى فلا بد من غسلها ، واستدلوا بأحاديث وآثار وأعمال الصحابة .

وقرأ آخرون من قراء الحجاز والعراق « وأرجلكم » بخفض الأرجل فهى معطوفة على الرءوس ، والمطلوب المسح عليها ، واستدلوا بآثار .

وعلق على هذا بقوله :

والصواب عندنا فى ذلك أن الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء فى الوضوء ، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب فى التيمم ، واذا فعل ذلك بهما المتوضىء كان مستحقا اسم ماسح غاسل ، لأن غسلهما امرار الماء عليهما ، أو اصابتهما بالماء ، ومسحهما امرار اليد أو ما قام مقامها عليهما ، فاذا

فعل ذلك بها فاعل فهو غاسل ماسح . ولذلك نصب بعضهم الأرجل توجيها منه الى أن الغرض غسلهما ، وانكارا للمسح عليهما ، مع تظاهر الأخبار عن رسول الله بعموم مسحهما بالماء ، وخفضها بعضهم توجيها منه الى أن الغرض مسح الأرجل .

ولما قلنا فى تأويل ذلك انه معنى به عموم مسح الرجلين بالماء كره بعضهم للمتوضىء الاجتزاء بادخال رجليه فى الماء دون مسحهما بيده أو بما قام مقامها ، توجيها منه الى أن المراد مسح الرجلين جميعهما الى الكعبين دون بعضها مع غسلهما بالماء .

فالمراد بالمسح اذا العموم ، وفى هذا معنى الغسل والمسح ، وعلى هذا فالقراءتان صحيحتان .

ولكن أعجب القراءتين الىّ قراءة من قرأ ذلك خفضا ، لما وصفت من جمع المسح المعنيين اللذين وصفت ، ولأنه بعد قوله : « وامسحوا برءوسكم » فالعطف على الرءوس مع قربه منه أولى من العطف على الأيدى ، وقد فصل بين الأيدى والأرجل بجملة « وامسحوا برءوسكم » .

فان قال قائل : ما الدليل على أن المراد بالمسح فى الرجلين العموم دون أن يكون خصوصا نظير قولك فى المسح بالرأس ؟

قيل : الدليل تظاهر الأخبار عن رسول الله أنه قال « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار » ولو كان مسح

بعض القدم مجزيا عن عمومها بذلك لما كان لها الويل بترك ما ترك مسحه منها بالماء بعد أن يمسح بعضها ، لأن من أدى فرض الله عليه فيما لزمه غسله منها لم يستحق الويل ، بل يجب أن يكون له الثواب الجزيل ، فوجوب الويل لعقب من ترك غسل عقبه عند وضوئه ، أوضح الدليل على وجوب فرض العموم بمسح جميع القدم بالماء ، وصحة ما قلنا فى ذلك ، وفساد ما خالفه .

ثم ناقش الطبرى ما روى أن رسول الله توضأ ، ومسح على نعليه فقال : ان الخبر ليس فيه ما يدل على أن النبى توضأ بعد حدث يوجب الوضوء للصلاة ، فالمسح على النعلين أو القدمين جائز فى هذه الحالة ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك اذا توضأ لغير حدث[1] .

٤ — ومن هذه الآراء الفقهية أنه جزم بأن المطلقة ثلاثا لا تحل لزوجها الأول الا اذا عقد عليها رجل آخر ، ثم واقعها ثم طلقها .

قال فى تفسير قوله تعالى :

« فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

أى الناكحين عنى الله بقوله « حتى تنكح زوجا غيره » الجماع ؟ أم العقد ؟ المراد كلاهما ، لأن المرأة اذا نكحت

---

(١) التفسير ٦/٨١ .

زوجا نكاح تزويج ثم لم يطأها ، ولم يجامعها حتى يطلقها لم تحل للأول . وكذلك ان وطئها واطىء بغير عقد لم تحل للأول ، لاجماع الأمة جميعا .

فاذا كان ذلك كذلك ، فالمعنى أنها لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجا غيره نكاحا صحيحا ، ثم يجامعها فيه ، ثم يطلقها . ثم أورد أحاديث تؤيد هذا التأويل ، منها أن رسول الله سئل عن رجل طلق امرأته ، فتزوجت رجلا غيره ، فدخل بها ، ثم طلقها قبل أن يواقعها ، أتحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله : لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها ، وتذوق عسيلته (١)

١٠ — تصويب رأى السلف

وكان أحيانا يعرض آراء المتكلمين ، ويسميهم أهل الجدل ، ويناقشها ، ويصوب الرأى السلفى الذى يدين به .

١ — من هذا أنه استبعد رأى المعتزلة فى أن المراد بيد الله نعمته أو ملكه أو قوته ، وصوب أن المراد باليد صفة من صفاته ، لكنها ليست بجارحة كجوارح البشر .

ذكر فى قوله تعالى :

« وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء »

---

(١) التفسير ٢/٢٩٠ .

يعنون أن خير الله ممسك وعطاءه محبوس عن الاتساع عليهم ، كما قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وانما وصف تعالى اليد بذلك والمعنى العطاء ، لأن عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب أن يكون بأيديهم ، فجرى الاستعمال فى الوصف بالجود أو بالبخل بالاضافة الى اليد . كما قال الأعشى فى المدح :

يداه يدا مجد فكفٌ مفيــدةٌ
وكف اذا ما ضُنَّ بالزاد تنفق

ومثل ذلك فى كلام العرب وأشعارها أكثر من أن يحصى، فخاطبهم الله بما يتعارفونه ويتحاورونه بينهم فى كلامهم ، فقال ان اليهود قالوا ان الله يبخل علينا ، ويمنعنا فضله ، فلا يفضل ، كالمغلولة يده الذى لا يقدر أن يبسطها بعطاء ، ولا بذل معروف . تعالى الله عما قال أعداء الله .

فقال الله يكذبهم ويخبرهم بسخطه عليهم «غلت أيديهم» أى أمسكت أيديهم عن الخيرات ، وقبضت عن الانبساط بالعطيات ، ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان بالبذل والعطاء ، وأرزاق العباد .

وبمثل الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل .

وبعد أن ذكر آراءهم المتفقة مع هذا التأويل شرع يناقش المتكلمين فقال : واختلف أهل الجدل فى تأويل قوله « بل يداه مبسوطتان » قال بعضهم : عنى بذلك نعمتاه مبسوطتان،

بمعنى يد الله على خلقه ونعمه عليهم ، لأن العرب تقول الك عندى يد ، يعنون بذلك نعمة .

وقال آخرون من أهل الجدل : عنى بذلك القوة ، نظير قوله تعالى « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى » .

وقال آخرون منهم : بل يده ملكه ، ومعنى قول اليهود « يد الله مغلولة » ملكه وخزائنه ، كقول العرب للملوك ، هو ملك يمينه ، وفلان بيده عقدة نكاح فلانة ، أى يملك ذلك ، وكقوله تعالى « فقدموا بين يَدَىْ نجواكم صدقة » .

وقال آخرون منهم : يد الله صفة من صفاته ، هى يد ، غير أنها ليست بجارحة كجوارح بنى آدم ، لأن الله تعالى أخبر من خصوصية آدم بما خصه به من خلقه اياه بيده ، والا لم يكن مخصوصيته آدم بذلك وجه مفهوم ، اذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ومشيئته ، وهو لجميعهم مالك ، واذ خص آدم بأنه خلقه بيده ، دون غيره من عباده ، كان معلوما أنه انما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق . وبهذا يبطل تفسير اليد بالقوة والنعمة والملك فى هذا الموضع ، ولو أن المراد باليد النعمة لكان الرد عليهم بل يده مبسوطة ، ولم يقل بل يداه مبسوطتان ، لأن نعمة الله لا تحصى بكثرة ، وبذلك جاء التنزيل فى قوله تعالى :

« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . قالوا : ولو كانت نعمتين كانتا محصاتين . وقالوا : فان ظن ظان أن النعمتين

بمعنى النعم الكثيرة فذلك خطأ ، لأن العرب قد تخرج الجميع بلفظ الواحد ، كقوله تعالى « والعصر ان الانسان لفى خسر » وقوله « وكان الكافر على ربه ظهيرا » فلم يرد بالانسان والكافر انسانا بعينه ولا كافرا بعينه ، بل عنى به جميع الانس ، وجميع الكفار ، ولكن الواحد أدى عن جنسه ، كما تقول العرب ، ما أكثر الدرهم فى أيدى الناس. فأما اذا ثنى الاسم فلا يؤدى الا عن اثنين بأعيانهما دون الجميع ، قالوا : وخطأ فى كلام العرب أن يقال ما أكثر الدرهمين فى أيدى الناس بمعنى ما أكثر الدراهم فى أيديهم، وبهذا تبين خطأ من قال : اليد النعمة ، وصحة من قال : انها صفة لله .

ولم يعترض الطبرى على هذا الرأى، الأخير بشىء[1] ، بل هو يؤيد ما ذكره أولا .

٢ — وكذلك صوب رأى السلف فى رؤية الله يوم القيامة ، ورد على المعتزلة الذين أنكروا هذه الرؤية [2] .

(١) التفسير ٦/١٩٣ .
(٢) التفسير ٧/١٩٩ ــ ٢٠٣ .

١١ — الإدلاء برأيه

كثيرا ما أعلن رأيه ، فرفض رأيا ، ورجح رأيا ، مدللا على أسباب الرفض والترجيح ، معللا لتصويب ما ذهب اليه.

١ — من أمثلة الرفض أنه استبعد رأيا لمجاهد مع ثقته به ووصف رأيه بأنه فاسد ، ومخالف للاجماع .

قال فى تفسير قوله تعالى :

« ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .

ولقد عرفتم الذين تجاوزوا حدى ، وركبوا ما نهيتهم عنه فى يوم السبت ، وعصوا أمرى ، فمسختهم قردة بمعصيتهم .

وذكر عن ابن عباس أن الله حرم عليهم فى يوم السبت ما أحل لهم فى غيره ، من صيد الحيتان وأكلها ، فكانت تقبل يوم السبت الى ساحل بحرهم ، فاذا انتهى السبت مضت ، فاجترأ بعضهم على صيدها يوم السبت ، فمسخهم الله قردة ، الا الذين كانوا ينهون عن السوء .

وكذلك عن قتادة والسدى :

ثم ذكر عن مجاهد أن الله لم يمسخهم ، انما هو مثل ضربه الله لهم ، كما ضرب مثل الحمار يحمل أسفارا .

وعلق على رأى مجاهد بقوله : هذا القول مخالف الظاهر مادل عليه كتاب الله ، وذلك أن الله أخبر فى كتابه أنه

جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، كما أخبر أنهم قالوا لنبيهم أرنا الله جهرة ، وأن الله أصعقهم عند مسألتهم ذلك ، وأنهم عبدوا العجل ، فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة ، فقالوا لنبيهم « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » .

فابتلاهم بالتيه .

ومن ذكر شيئا من ذلك وأقر بآخر سئل البرهان على قوله ، وعورض فيما أنكر من ذلك بما أقر به ، ثم يسأل الفرق من خبر مستفيض أو أثر صحيح .

هذا مع خلاف قول مجاهد لقول جميع الحجة[1] التى لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعة عليه ، وكفى دليلا على فساد قول مجاهد اجماعها على تخطئته[2] .

والحق أن رأى مجاهد جدير بالاعتبار لا بالانكار ، وقد فسر الزمخشرى الآية بأنهم جمعوا بين الصغار والطرد من رحمة الله . وهــذا هو المفهوم من الآية ، وكان على الطبرى ألا ينكره ويحمل على من ذهب اليه .

٢ — ومن الترجيح ما ذكره فى قوله تعالى :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رســوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم

---

(١) يريد بجميع الحجة أصحاب الحجة والأدلة .

(٢) التفسير ١/٢٦٤ .

فاستقيموا لهم ، ان الله يحب المتقين . كيف وان يظهـروا عليكم لا يرقبوا فيكم الاً ولاذمة ، يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون » .

فقد ذكر اختلاف أهل التأويل فى الذين عنوا بقوله : « الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » أهـم قوم من جذيمة من الديل أم من جذيمة بكر من كنانة أم من قبائل بكر الذين كانوا دخلوا فى عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية الى المدة التى كانت بين رسول الله وقريش ، فلم ينقضها الا هذا الحى من قريش وبنـو الديل من بكر ، أم هـم قريش ، أم هم قوم من خزاعة ؟

ثم علق على هذا بقوله :

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب عنـدى قول من قال : هم بعض بنى بكر من كنانة ، ممن كان أقام على عهده ، ولم يكن دخل فى نقض ما كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش يوم الحديبية من العهد مع قريش حين نقضوه بمعونتهم حلفاءهم من بنى الديل على حلفاء رسول الله من خزاعة .

وانما قلت هذا القول أولى الأقوال بالصواب ، لأن الله أمر نبيه والمؤمنين باتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم . وقد بينا أن هذه الآيات انما نادى بها علىّ فى سنة تسع من الهجرة ، وذلك بعد فتح مكة بسنة ، فلم يكن بمكة من قريش ولا خـزاعة كافر

يومئذ بينه وبين رسول الله عهد، فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده ، لأن من كان منهم من ساكنى مكة كان قد نقض العهد وحورب قبل نزول هذه الآيات .

ثم ذكر خلاف المفسرين فى معنى الال آهو الله أم القرابة أم الحلف والعهد ؟

ثم علق بقوله :

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال بالصواب أن الال يشتمل على معان ثلاثة : وهى العهد والعقد والحلف ، والقرابة ، والله .

فاذا كانت الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك معانيها الثلاثة ، فيقال : لا يرقبون فى مؤمن الله ولا قرابة ولا ميثاقا .

ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى القرابة قول بن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا
قطعوا الال وأعراق الرحم

بمعنى قطعوا القرابة .

وقول حسان بن ثابت :

لعمرك ان الك من قريش
كال السقب من رأل النعام

وأما معناه اذا كان بمعنى العهد فقول القائل :

وجـــدناهم كاذبا الهـــم
وذو الال والعهد لا يكذب[1]

٣ ــ وفى قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » .

ذكر الخلاف متصلا فى أيهما الذبيح اسحاق أم اسماعيل ؟ ثم عقب بقوله :

قال أبو جعفر : وأولى القولين بالصواب قول من قال هو اسحاق ، لأن الله قال : « وفديناه بذبح عظيم » فذكر أنه فدى الغلام الحليم الذى بشر به ابراهيم حين سأله أن يهب له ولدا صالحا من الصالحين ، فقال : « رب هب لى من الصالحين » .

فاذا كان المفدى بالذبح من ابنيه هو المبشّر به ، وكان الله تبارك اسمه قد بين فى كتابه أن الذى بشر به هو اسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ، فقال جل ثناؤه : « وبشرناه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » وكان فى كل موضع من القرآن ذكر تبشيره اياه بولد ، فانما هو معنىٌ به اسحاق ، كان بينا أن تبشيره اياه بقوله « فبشرناه بغلام حليم » فى هذا الموضع نحو سائر أخباره فى غيره من آيات القرآن .

وبعد ، فان الله أخبر جل ثناؤه فى هذه الآية عن خليله أنه بشره بالغلام الحليم ، عن مسألته اياه أن يهب له من الصالحين ، ومعلوم أنه لم يسأله ذلك الا فى حال لم يكن له

(١) التفسير ١٠/٥٩ · السقب : ولدالناقة · الرأل : ولد النعام ·

فيه ولد من الصالحين ، فمعلوم أن الذى ذكر تعالى ذكره فى هذا الموضع هو الذى ذكر فيه سائر القرآن ، أنه بشره به ، وذلك لا شك أنه اسحاق ، اذ كان المفدى هو المبشر به .

وأما الذى اعتل به من أعتل فى آية اسماعيل أن الله قد كان وعد ابراهيم أن يكون له من اسحاق ابن ابن فلم يكن جائزا أن يأمره بذبحه مع الوعد الذى تقدم ، فان الله انما أمره بذبحه ، بعد أن بلغ معه السعى ، وتلك حال غير ممكن أن يكون قد كان وُلِد لاسحاق منها أولاد فكيف الواحد؟.

وأما اعتلال من اعتل بأن الله أتبع قصة المفدى من ولد ابراهيم بقوله : « وبشرناه باسحاق نبيا » ولو كان المفدى هو اسحاق لم يبشر به بعد ، وقد ولد وبلغ معه السعى ، فان البشارة بنبوة اسحاق من الله فيما جاءت به الأخبار وجاءت ابراهيم واسحاق بعد أن فُدى تكرمة من الله له على صبره لأمر ربه فيما امتحنه به من الذبح .

وأما اعتلال من اعتل بأن قرن الكبش كان معلقا فى الكعبة فغير مستحيل أن يكون حمل من الشام الى مكة .

وقد روى عن جماعة من أهل العلم أن ابراهيم انما أمر بذبح ابنه اسحاق بالشام وبها أراد ذبحه (١) .

٤ — وفى قوله تعالى :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم » .

---

(١) التفسير ٢٣/٤٨ ـ ٥٥ .

ذكر رأيين :

أولهما أن النبى دعا على قريش بسنين كسنى يوسف ، فجهدوا وجاعوا ، وكانوا يرفعون أبصارهم الى السماء ، فلا يرون الا الدخان ، ومن القائلين بهذا ابن مسعود .

ثانيهما : أن الدخان علامة من علامات القيامة يملأ ما بين المشرق والمغرب . ومن رواته حذيفة بن اليمان عن رسول الله (حدثنى عاصم بن رَوّاد بن الجراح قال : حدثنى أبى قال : حدثنا سفيان بن سعيد الثورى قال : حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعى بن حراش قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله ..

وعقب الطبرى على هذا بقوله : وأولى القولين فى ذلك ما روى عن ابن مسعود ، ان لم يكن خبر حذيفة صحيحا . وان كان صحيحا فرسول الله أعلم بما أنزل الله عليه ، وليس لأحد مع قوله الذى يصح عنه قول .

وانما لم أشهد له بالصحة ، لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روّادا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان ؟ فقال له : لا . فقال له : فقرأته عليه ؟ قال : لا . فقال له : فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به ؟ فقال : لا . فقال له : فمن أين جئت به ؟ قال : جاءنى به قوم فعرضوه علىّ وقالوا لى اسمعه منا ، فقرأوه على ، ثم ذهبوا ، فحدثوا به عنى . وانما قلت ان قول ابن مسعود أولى بتأويل الآية، لأن الله جل ثناؤه توعد بالدخان مشركى قريش ، ولأن قوله

لنبيه ، « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » فى سياق خطاب الله كفار قريش ، وتقريعه اياهم بشركهم فى قوله : « لا اله الا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين . بل هم فى شك يلعبون ، فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » وهذا أمر له بالصبر الى أن يأتيهم بأسه ، وتهديد للمشركين ، فهو أشبه بوعيد لهم من أن يكون وعيدا مؤخرا لغيرهم (١) .

٥ — وما جاء فى قوله تعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم . سنعذبهم مرتين ، ثم يردون الى عذاب عظيم » . قال فى تفسيرها : سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين ، احداهما فى الدنيا والأخرى فى القبر . ثم ذكر اختلاف أهل التأويل فى المراد بعذاب الدنيا ، أهو فضيحتهم وتبيين سرائرهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أم هو الجوع والقتل ؟ أم هو مصائبهم فى أموالهم وأولادهم ؟ أم هو الحدود ؟ أم أخذ الزكاة منهم ؟ أم غيظهم من عزة الاسلام ؟

ثم قال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب عندى أن يقال ان الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين ، ولم يضع لنا دليلا نتوصل به الى علم صفة ذينك العذابين ، وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين

---

(١) التفسير ٢٤/٦٨ .

ما أنبئنا عنهم ، وليس عندنا علم بأى ذلك هو المراد . على أن فى قوله جل ثناؤه « ثم يردون الى عذاب عظيم » دلالة على أن العــذاب فى المرتين كليهما قبل دخولهم النــار ، والأغلب من احدى المرتين أنها فى القبر [١] :

١٢ — التقليل من الأساطير

قلل من ذكر الاسرائيليات والنصرانيات والأساطير ، لأنها كما ذكر مرات لا قيمة لها .

١ — كما قال فى المائدة التى نزلت على عيسى ، وهل كان عليها طعام ، أو لم يكن عليها طعام [٢] .

٢ — وقال فى تفسير قوله تعالى فى ســورة يوسف « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة » أما الدراهم المعدودة فانه يعنى عز وجل أنهم باعوه بدراهم غير موزونة ناقصة غير وافية لزهدهم فيه .

وقيل انما قيل معدودة ليعلم بذلك أنها كانت أقل من الأربعين ، لأنهم كانوا فى ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أربعين درهما ، لأن أقل أوزانهم وأصغرها كان الأوقية ، وكان وزنها أربعين درهما ، فدل بقوله معدودة على قلة الدراهم التى باعوه بها .

---

(١) التفسير ١١/٩ .
(٢) التفسير ٧/٨٢ .

قال بعضهم : كان عشرين درهما :

وقال بعضهم : كان « اثنين وعشرين درهما » أخذ كل واحد من اخوة يوسف وهم أحد عشر رجلا درهمين منها .

وقال آخرون : بل كانت أربعين درهما .

ثم علق بقوله :

والصواب أن يقال : ان الله أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة ، ولم يحدد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد ، ولا وضع عليه دلالة فى كتاب ، ولا خبر من الرسول . وقد يحتمل أن يكون الثمن عشرين ، ويحتمل أن يكون اثنين وعشرين ، ويحتمل أن يكون أربعين ، ويحتمل أن يكون أقل من ذلك وأكثر ، وأى ذلك كان فانها كانت معدودة غير موزونة ، وليس فى العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع فى دين ، ولا فى الجهل به دخول ضرر فيه ، والايمان بظاهر التنزيل فرض ، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه [1] .

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى فى سورة البقرة :

« فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » اختلف العلماء فى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وأى عضو كان ذلك منها ؟

فقال بعضهم : انه الفخذ ، وقال بعضهم : انه البَضْعة التى بين الكتفين ، وقال غيرهم انه عظم من عظامها .

---

(١) التفسير ١٠٣/١٢ .

وعلق بقوله : والصواب أن الله أمرهم أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب ، ولا دلالة فى الآية ولا خبر تقوم به حجة على أى أبعاضها أمر القوم أن يضربوا القتيل به .

ولا يضر الجهل بأى ذلك ضربوا القتيل ، ولا ينفع العلم به ، مع الاقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها ، فأحياه الله (١) .

قيمته

لعله قد تبين من مصادره ومن منهجه أنه السجل الجامع الأمين لما روى عن النبى وعن الصحابة والتابعين من آراء فى التفسير . وهو بهذه الصبغة ينفرد بين كتب المفسرين ، وينهض وحده باسعاف الباحثين اذا ما أرادوا التعرف على آراء السلف . وهو الى هذا حافل بآراء فى اللغة والفقه والتاريخ والنحو والقراءات ، وثرى بأشعار من الجاهلية والاسلام .

ومن الانصاف للطبرى العظيم أن نشهد له بأنه لم يكن مسجل آراء وأسانيد فحسب ، بل كان يشفع بهذا التسجيل رأيه ، ويدلل عليه ، فكان يرفض ، ويعلل لرفضه ، وكان يرجح ويدلل على ترجيحه ، وكان يؤيد ويبرهن على تأييده.

---

(١) التفسير ١/٢٨٦ .

واذا كان منهجه فى كتاب التاريخ قد اتسم بالتسجيل المحايد ، فان منهجه فى كتاب التفسير قد اتسم بالتسجيل والتعليق وابداء الرأى .

لهذا عرف القدماء قدره ، وعظموا مكانته .

مكانتـــه

قال تلميذه أبو بكر أحمد بن كامل : قرأ الطبرى تفسيره علينا سنة ٢٧٠ ، واشتهر الكتاب ، وارتفع ذكره ، فى وقت كان يحيا فيه أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، وهما معقلان لأهل الاعراب والمعانى. وكان يحيا فى ذلك الوقت غيرهما مثل أبى جعفر الرُستمِى ، وأبى حسن بن كيسان ، والمفضل بن سلمه، والجَعْد ، وأبى اسحاق الزجاج ، وغيرهم من النحويين وفرسان هذا اللسان .

وقد حمل كتاب التفسير شرقا وغربا ، وقرأه كل من كان فى وقته من العلماء ، وكلّ فضّله وقدمه(١) .

وقال القفطى : لم ير أكبر من تفسير الطبرى ، ولا أكثر فوائد (٢) .

وقال السيوطى : كتاب الطبرى فى التفسير أجل التفاسير وأعظمها ، فانه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٢ .
(٢) انباه الرواة ٣/٨٩ .

على بعض ، وللاعراب ، وللاستنباط ، فهو يفــوق بذلك تفاسير الأقدمين (١)

وقال أيضا : ان الطبرى رأس المفسرين على الاطلاق ، وانه جمع فى تفسيره بين الرواية والدراية ، ولم يشاركه فى ذلك أحد قبله ولا بعده (٢)

وهكذا يشيد به كل من أرخوا للطبرى من تلاميذه ومن غيرهم على تعاقب الأعصار ، وتباعد الأزمان ، وتعدد الأقاليم .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن .

(٢) طبقات المفسرين ٣٠ .

الفصل الثامن

الطبرى المؤرخ

« تاريخ الأمم والملوك »

تطور المنهج التاريخى

كان التاريخ قبيل الطبرى وفى عصر الطبرى قد خطا خطوتين واسعتين فى ميدان تطوره :

أولاهما هى استقلاله وانفصاله من الحديث فى القرن الثانى ، منذ تخصص كثير من المؤرخين فى موضوعات معينة ، اشتهروا بمعرفتها ، وجمعها ، وتدوينها . فمحمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ يشتهر بالأنساب ، وعوانة بن الحكم الكلبى المتوفى سنة ١٤٧ يدون أخبار بنى أمية ، وأبو مِخْنَف لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٧ يؤلف فى حرب الردة وفى موقعة الجمل وفتوح الشام ومقتل عثمان ومقتل على الخ ، وسيف ابن عمر المتوفى سنة ١٧٠ يؤلف فى الفتوح ، وهشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ يدون أخبار الأوائل وأيام العرب ، وأنسابهم ، وأصنامهم ، ويؤلف فى بعض أخبار الاسلام .

وكان بعضهم قد تخصص فى تواريخ الأقاليم ، فكان أبو مخنف أعلم من غيره بأمور العراق وأخبارها وفتوحها ،

وكان المدائنى أعرف بأمور فارس وخراسان والهند ، وكان الواقدى أدرى بالسيرة النبوية وتاريخ الحجاز ، وهؤلاء الثلاثة أكثر من غيرهم علما بفتوح الشام (١) . ثم اتضح هذا التخصص حينما انقسمت الدولة العباسية منذ منتصف القرن الثالث ، وتعددت الممالك والامارات والدويلات ، وكثرت العواصم والحواضر التى نافست بغداد ، فازدانت بالعلماء أصفهان وغَزْنة والرّى وبَلْخ وحَلَب والقاهرة والقيروان وقُرْطبة .

وكان من أثر هذا الاستقلال أن ازدهر التاريخ الاقليمى ، وأن كثرت كتب التراجم والطبقات .

فابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ ألف فى فتوح مصر والمغرب ، والبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ ألف فى أنساب الأشراف وفى فتوح البلدان ، وابن يونس (٢٨١ — ٣٤٧) أرخ لحوادث مصر ورجالها ومن طرأ عليها من الغرباء ، والكندى (٢٨٣ — ٣٥٠) ألف كتابا فى ولاة مصر وقضاتها ، وكتابا فى خططها ، وكتابا فى مواليها (٢) .

على أن التأليف فى التاريخ العام لم يتوقف عن مسايرة هذه الاتجاهات ، فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ ألف كتابه المعارف وغيره .

(١) الفهرست ١٣٧ وتاريخ بغداد ١٤/٤٥ ووفيات الأعيان ٢/١٤٠ و ١٩٥ .

(٢) ثم أرخ الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ لبغداد وأعلامها ، وأرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ لدمشق ورجالها.

وهناك آخــرون دونوا تاريخ العــالم منــذ الخليفة ، وتعرضوا لتاريخ الشعوب ، وبخاصة الفــرس والــروم ، كاليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ (أو ٢٨٤) صاحب التــاريخ المعروف باسمه ، والدنيورى المتوفى سنة ٢٩٠ مؤلف الأخبار الطوال .

وأما الخطــوة الأخرى فقد كانت تمثل المكانة العالية للتاريخ والمؤرخين ، اذ تعددت مصادره الموثوق بها فى القرن الثالث ، فصار لا يعتمد عــلى الأساطير والأخبــار التى لا ضابط لها [1] ، بل يعتمد على كتب مدونة فى الســيرة

---

(١) كان كثير من الأخبار القديمة وليد الوضع والاختلاق ، وكان مما دونه الوعاظ وأذاعوه باطلا لا أصل له ، نمقه خيالهم، أو سمعوه من أهل الكتاب . وهذا هو الســبب في قول الامام أحمد بن حنبل : ثلاثة لا أصل لها : التفسير والملاحم والمغازى (الاتقان للسيوطى ٢/٢٢٠) وهو يريد التفسير المحشــــو بالأساطير ، والتفسير المعتمد على الرأى . ومن هنا ضعف علماء الحديث من يشتهر بالأخبار من المحدثين مثل محمد بن اسحاق، فقد كان محدثا ثم أخباريا ينقل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول .

كذلك لم يرتضوا من الفقيه أن يشتهر بالأخبار ، فقد ذكر ابن خلكان أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب ، وأنه مضى ليستمع لابن اسحاق أو غيره ، وتخلف عن مجــلس أبى حنيفة ، فلما أتاه قال له أبوحنيفة : يا أبا يوســف ، من كان صاحب راية جالوت ؟ فقال أبو يوســف : انك امام ، وان لم تمسك عن هذا سألتك والله على رءوس الملأ : أيهمــا كان أولا وقعة بدر أم وقعة أحد ؟ فانك لاتدرى أيهما كانت قبل الأخرى . فأمسك عنه أبو حنيفة (وفيات الأعيان ٢/٤٥٢) .

وتاريخ الأقاليم والتاريخ العام ، وعلى وثائق وسجلات ، وعلى كتب مترجمة من اللغات الأجنبية الى جانب اعتماده على المشافهة والمشاهدة والرحلات .

ولم يعد المؤرخ يسمى أخباريا ، كما كان يسمى من قبل ، واقتصر مدلول الأخبارى على راوى القصص والنوادر والحكايات .

وبهذا صار التاريخ علما قيما لا يستنكف العلماء والفقهاء من التوفر على دراسته ، ولا يتحامون التألف فيه ، وأصبح المؤرخون ذوى مكانة عالية بين العلماء .

موضوع الكتاب

ينبىء اسم الكتاب عن موضوعه ، سواء أكان اسمه (تاريخ الأمم والملوك) كما نجد على النسخة المطبوعة [1] ،

---

(١) طبع فى ليدن من سنة ١٨٧٩ الى ١٨٩٨ فى ٢٨ مجلدا بتحقيق الأستاذ دى غويه ومستشرقين آخرين مع مقدمه باللاتينية وفهارس بالعربية وتعليقات فى جزأين .

وطبع مرة اخرى فى ليدن انتهت سنة ١٩٠١ .

وطبع بمصر بالمطبعة الحسينية سنة ١٣٣٩ (١٩٢٠) .

وطبع مرة ثانية بمصر بمطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ (١٩٣٩)

ويطبع الآن بدار المعارف بمصر بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم .

أم (تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء) كما ذكر ياقوت[1]

ونستطيع أن نقسم الكتاب قسمين كبيرين :

القسم الأول يتناول ما قبل الاسلام .

والقسم الثانى يتناول ما بعد الاسلام .

— ١ —

أما القسم الأول فقد تناول فيه بدء الخليقة ، فتكلم عن الزمان ما هو ؟ وكم سنة مضت منذ بدء الخليقة ؟ ومتى تنتهى ؟

وذكر ابليس وما قيل فى حقيقته ، ومكانته قبل خلق آدم ، ثم عصيانه واستكباره أن يسجد لآدم ، وطرده من رحمة الله .

وعقب على هذا بالكلام عن آدم ، وامتحان الله اياه بأن أباح له ولزوجته أن يأكلا من الجنة ما أرادا غير ثمر شجرة واحدة ، فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما أن يأكلا ما نهاهما ربهما عنه ، فبدا لهما من سوآتهما ما كان خافيا عليهما ، فطردهما ربهما من الجنة الى الأرض .

وأورد هنا عـــدة روايات فى أن آدم هبط الى الهند ، وروايات أخرى فى أنه هبط بسرنديب ، وهبطت حواء بجدة ،

---

(١) معجم البلدان ١٨/ ٤٤ وذكر أنه وجد اسم الكتـــاب كذلك على جزء من كتاب التفســـير للطبرى بخط الفرغانى ، وهو ممن درسوا على الطبرى ٠

ونزل ابليس بميسان ، وأوت الحية الى أصبهان . ثم عرض للأحداث التى كانت فى الزمن الذى قضاه آدم على الأرض ، وأولها قتل قابيل أخاه هابيل ، لاختلافهما على الأخت التى يتزوجها كل منهما ، ولم يفته أن يذكر هنا رواية أخرى تقول ان أحدهما كان صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، وانهما أمرا بتقريب قربان ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

كذلك لم يفته أن يذكر أن القاتل والقتيل فى رواية أخرى كانا من بنى اسرائيل ، ولم يكونا ابنى آدم من صلبه .

وبعد أن أطال فى أمور تتصل بآدم ، فصل القول فى موته وفى سنه حينما مات .

وذكر بعد ذلك الأحداث التى كانت فى أيام أبناء آدم منذ ملك ابنه شيث .

وعرض فى هذا القسم للأنبياء نوح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحاق وأيوب وشعيب ويعقوب ويوسف وموسى والياس وداود وسليمان وهود وصالح ويونس وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

وأما الأمم التى أرخ لها فهم الفرس والروم والعرب واليهود ، فذكر تاريخ الفرس منذ زمن قديم ، وفصل المقال فى منوشهر ومن بعده الى كيقباد ، وكيقاوس ، وكيخسرو ، ولهراسب ، وبختنصر (١) ، وتحدث عن غزوة بختنصر

(١) قال فى ٢٩١/١ أن بختنصر هو نبوخذ نصر .

لبنى اسرائيل ، ثم تحدث عن بشتاسب وما كان فى عهده ، وعن أردشير بهمن ، ودارا الأكبر ، وابنه دارا الأصغر ، وهزيمة الاسكندر له . وعن أردشير بن بابك ، وسابور ، وهرمز ، وبهرام ابنه ، وبهرام بن بهرام ، وبهرام الملقب بشاهنشاه ، ونرسى بن بهرام ، وهرمز بن نرسى ، وسابور ذى الأكتاف ، وأردشير بن هرمز ، وسابور بن سابور ذى الأكتاف ، وبهرام بن سابور ، ويزدجرد بن بهرام ، وبهرام جور ، ويزدجرد بن بهرام جور ، وفيروز بن يزدجرد ، وقباذ بن فيروز ، وكسرى أنو شروان ، وهرمز ابنه ، وكسرى أبرويز ، وهو الذى حدثت فى زمنه موقعة ذى قار .

ثم تلاه ملوك آخرون الى يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، وهو الذى فتح العرب بلاد الفرس فى زمنه .

وتحدث عن أنبياء بنى اسرائيل ، وعن قصة الخضر مع موسى ، وعن هارون ، وعن رؤساء بنى اسرائيل بعد يوشع بن نون ، وعن الياس بن ياسين ، وعن شمويل بن بالى ، وتغلب العمالقة هم وملكهم جالوت على بنى اسرئيل ، ثم خلاصهم على يد النبى داود وقتله جالوت .

وذكر غزوات سليمان بن داود ، وعلاقته ببلقيس ، وتفرق المملكة بعده ، الى أن هجم عليهم سنحاريب ملك بابل ، ونجاهم الله منه ، ثم تحدث عن غزوة بختنصر لبنى اسرائيل ، وتخريبه بيت المقدس ، وتفرق بنى اسرائيل ، ونزول بعضهم بالحجاز بيثرب ، ووادى القرى وغيرهما .

وذكر ملوك الروم منذ المسيحية الى الاسلام .

وتحدث عن عاد وقوتهم وظلمهم وعصيانهم نبيهم هود ، واهلاك الله لهم .

وتحدث عن ثمود ، وعتوهم وكفرهم ومعصيتهم نبيهم صالحا ، وهلاكهم بسبب عصيانهم ، وكذلك ذكر طسم ، وجديس ، وذكر جرهم ، واصهار اسماعيل اليهم .

وتحدث عن غزو بختنصر للعرب فى زمن معد بن عدنان .

وذكر ملوك اليمن وعلاقتهم بالحبش ثم بالفرس .

وتحدث عن بعض المشهورين من الأفراد مثل عمرو بن الظرب والزّباء .

ثم ذكر أجداد النبى عليه الصلاة والسلام من عدنان الى عبد المطلب ، وذكر طرفا من أخبار الرسول قبل أن يبعث .

— ٢ —

وأما القسم الثانى فقد تناول فيه حياة رسول الله ، وأخباره وغزواته ، ثم ذكر تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم ، وجعل يتتبع تاريخ المسلمين بعد ذلك فى الدولة الأموية ، والدولة العباسية الى سنة ٣٠٢ هـ .

وكان فراغه من تأليفه سنة ٣٠٣ هـ بعد أن ألف كتابه فى التفسير ودرسه لتلاميذه (١)

---

(١) كتاب التاريخ ١/٤٥ ومعجم الأدباء ١٨/٤٢ ، ٦٢

أهم مصادره

استقى من عدة مصادر اطمأن الى أنها حجة فى موضوعاتها موثوق بها .

١ - فاعتمد فى تاريخ الرسل والأنبياء على كتب التفسير وكتب السير وبخاصة سيرة ابن اسحاق ، وكتاب المبتدأ لوهب بن منبه (١) .

٢ - واستمد تاريخ الفرس من ترجمات عربية لكتب فارسية ، وبخاصة كتب ابن المقفع ، كما استمد من كتب هشام الكلبى الذى كان يعتمد فى تاريخ ملوك فارس والحيرة على وثائق ومدونات (٢) .

٣ - وعول فى تاريخ الروم على ما نقله من كتب نصارى الشام الذين كانوا يعرفون تاريخ الدولة الرومانية والامبراطورية البيزنطية من وثائق صحيحة كما سأبين .

٤ - ونقل تاريخ اليهود من مصادر بعضها كتب اسرائيلية ، فقد أورد فى قصة يوسف ما يدل على هذا فى قوله :

ذكر بعض أهل التوراة أن فى التوراة أن الذى كان من

---

(١) رواه عبد المنعم بن ادريس بن سنان المتوفى سنة ٢٢٨ وهو حفيد المؤلف (الفهرست ١٣١ - ١٣٨) وقد نقل الطبرى منه مباشرة أو عن سيرة بن اسحاق .

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٣٧ .

أمر يوسف واخوته والمصير به الى مصر وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأنه أقام فى منزل العزيز الذى اشتراه ثلاث عشرة سنة ، فلما تمت له ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر الريان بن الوليد ، وأنه مات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين ، وأنه كان بين فراقه يعقوب واجتماعه معه بمصر اثنتان وعشرون سنة ، وأن يعقوب دخل مصر فى سبعين انسانا من أهله (١) .

ولكنى لم أجد فى التوراة هذا التفصيل الذى ذكره الطبرى .

٥ — واعتمد فى تاريخ العرب قبل الاسلام على ما كتبه عبيد بن شرية الجرهمى ، ومحمد بن كعب القرظى ، ووهب ابن منبه ، وهشام الكلبى ، وابن اسحاق .

٦ — أما السيرة النبوية فقد عول فيها على مؤلفات أبان ابن عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وشرحبيل ابن سعد ، وموسى بن عقبة ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الزهرى ، ومحمد بن اسحاق .

٧ — فاذا ما انتقل الى حروب الردة والفتوح استمد من سيف بن عمر الأسدى ، والمدائنى .

٨ — وكانت مصادره فى أخبار موقعة الجمل وموقعة صفين ما كتبه أبو مخنف ، والمدائنى ، وسيف بن عمر .

---

(١) كتاب التاريخ ١/١٧٢

٩ — ثم كان اعتماده فى تاريخ بنى أمية على مدونات عوانه بن الحكم الكلبى ، وأبى مخنف ، والمدائنى ، والواقدى ، وعمر بن شبة ، وهشام الكلبى .

١٠ — فاذا ما جاء دور بنى العباس عول على كتب أحمد بن أبى خيثمة ، وأحمد بن زهير ، والمدائنى ، وعمر ابن راشد ، والهيثم بن عدى ، والواقدى (١) .

وكان لهؤلاء كتب كثيرة متداولة .

فلسيف بن عمر كتاب الفتوح الكبير ، وكتاب الردة ، وكتاب فى موقعة الجمل ومسير عائشة وعلى (٢) .

وللمدائنى كتاب فى الردة (٣) .

ولعمر بن شبه البصرى مؤلفات منها كتاب الكوفة ، وكتاب مكة ، وكتاب البصرة ، وكتاب المدينة (٤) .

---

(١) وهناك غير هؤلاء لكنه لم ينقل منهم كثيرا ، مثل ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ فقد نقل من كتابه (تاريخ بغداد) ولكنه لم يذكر اسم المؤلف الا مرة واحدة فى حوادث سنة ٢٥٠ وقد طبع الجزء الأول والسادس من هذا الكتاب سنة ١٩٠٨ بمدينة ليبزج ثم طبع بالقاهرة وهو الجزء المعروف من الكتاب (من مقال الدكتور جواد على بمجلة المجمع العلمى العراقى) .

(٢) الفهرست ١٣٧ .

(٣) الفهرست ١٣٧ .

(٤) وفيات الأعيان ٤٧٨/١ والفهرست ١٦٣ وتاريخ الطبرى ١٦٦/٦ .

منهجه

انفرد الطبرى بمنهج فى تاريخه ، موسوم بسمات خاصة ، على ما به من مزايا وعيوب

١ ـ التعويلات على الروايات

فقد عول على الرواة فى أكثر ما دونه ، وحجته فى ذلك أن المؤرخ لا يصح له أن يستند الى المنطق والقياس والاستنباط ، وان حسن ذلك منه فى قليل من المواضع .

قال فى مقدمة كتابه :

وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه انما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ، والآثار التى أنا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس .. الا القليل اليسير منه .

فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما ينكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجها فى الصحة ، ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قبلنا ، وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا [١] .

---

(١) مقدمة كتاب التاريخ ١/٥ .

لهذا دون الأخبار على عهدة رواتها ، وعرضها عرضا موضوعيا محايدا ، وعزا كل رواية الى صاحبها ، ولم يقتصر على ما يوافق فكره ، أو رأيه ، ولم يعلق بترجيح أو تفنيد أو ابطال ، بل ترك للقارىء أن يميز ويحكم ويختار .

وكان قليلا ما يدلى برأيه ، ويرجح رواية على أخرى ، اذا ما تبين له وجه للترجيح .

من ذلك أنه أورد الخلاف فى الذبيح أهو اسماعيل أم اسحاق ، وقدم لهذا الخلاف وعقب عليه برأيه أن الذبيح اسحاق ، فقال :

غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التى رويت عن رسول الله أنه قال هو اسحاق أوضح وأبين من الرواية التى رويت عنه أنه قال هو اسماعيل .

وقال : وأما الدلالة من القرآن التى قلنا انها أصح فقوله تعالى مخبرا عن دعاء خليله ابراهيم حين فارق قومه مهاجرا الى ربه الى الشام مع زوجته سارة « قال انى ذاهب الى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين » وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن تصير له أم اسماعيل ، ثم أتبع الله الخبر عن اجابته دعاء ابراهيم ، وتبشيره بغلام حليم ، ثم عن رؤيا ابراهيم أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعى ، ولا يعلم فى كتاب الله عز وجل تبشير لابراهيم بولد ذكر الا باسحاق . وذلك قوله « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » وقوله

« فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام حليم ، فأقبلت امرأته فى صَرّة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » .

ثم ذلك كذلك فى كل موضع ذكر فيه تبشير ابراهيم بغلام ، فانما ذكر تبشير الله اياه به من زوجته سارة ، فالواجب أن يكون ذلك فى قوله « فبشرناه بغلام حليم » نظير ما فى سائر سور القرآن من تبشيره به من زوجته سارة .

وأما اعتلال من اعتل بأن الله لم يكن يأمر ابراهيم بذبح اسحاق، وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته بولادته وولادة يعقوب من بعده فانها علة لا توجب صحة ماقال ، لأن الله انما أمر ابراهيم بذبح اسحاق بعد أن أدرك اسحاق السعى .

وجائز أن يكون يعقوب قد ولد قبل أن يؤمر ابراهيم بذبح اسحاق (١) .

---

(١) التاريخ ١/١٣٥ ـ ١٣٩ والتفسير ١٢/٨٦ ويتفق معه فى هذا الرأى ما رواه نهار العبدى عن النبى صلى الله عليه وسلم (أسد الغابة ٥/٤٣) وما ذكر أبو العلاء المعرى فى قوله :

فلو صح التناسخ كنت موسى
وكان أبوك اسحاق الذبيحا

(سقط الزند ١/٦٤) .

وما ذكره الجيلانى فى كتاب الغنية ٢/٤٠ .

ويخالفه ما ذكره أمية بن أبى الصلت فى ديوانه ٢٩ .

وما ذكره ياقوت فى معجم البلدان ٣/٥٥٧ .

وابن قيم الجوزية فى كتابه (هداية الحيارى من اليهود والنصارى) صفحة ١٠٢ .

٢ — الحرص على السند

ذكر فى كل حادثة ما قيل فيها من روايات ، وذكر سند كل رواية موصولا الى صاحبه على طريقة علماء الحديث ، فاذا نقل من كتاب ذكر اسم مؤلفه مثل قال ابن الكلبى ، أو قال محمد بن اسحاق ، أو قال الواقدى ، أو ذكر ابن الكلبى . وقلما كان يذكر اسم الكتاب ، واذا سمع من انسان مشافهة ، قال حدثنى فلان ، فاذا اشترك معه فى السماع آخرون قال : حدثنا فلان ، وسلسل السند الى مصدره الأول .

وكان يعتمد أحيانا على المراسلة ، فيقول مثلا كتب الىّ السدى عن فلان عن فلان الخ .

وقد حرص على السند والرواية المتصلة الا فى بعض مواضع يظهر أنه اعتمد فيها على النقل من كتب ، أو بطريق الاجازة من كتب ، فأهمل اسم المحدث كقوله : حُدِّثْتُ عن فلان ، أو ذُكِر عن فلان أنه قال ، أو ذكر كذا بالبناء للمجهول .

وهذه الصيغة كثيرة الترداد فى تاريخ الفرس ، اذ أنه ذكر كثيرا من أقوال هشام بن الكلبى ، والظاهر أنه أخذ من كتبه .

ونجد فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب صيغا تدل على تساهل فى السند ، كقوله : ذكر لى بعض أصحابى ، وذكر لى

جماعة من أصحابنا ، وذكر من رآه وشاهده ، وحدثنى جماعة من أهل كذا .

وربما كان مبعث التساهل هنا خوفه على محدثيه الأحياء من غضب الساسة ، لأن فى رواياتهم ما يعرض لغضب السلطان .

على أن السند يقل فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب من الجزء التاسع الى الحادى عشر حتى ليندر فى صفحات متواليات .

٣ — نظام السنين

فى القسم الأول من الكتاب الخاص بما قبل الاسلام عرض الحوادث غير مرتبة على حسب السنين ، اذ كان ذلك غير مستطاع ، فبدأ بالخليقة ثم بالأنبياء وما فى عهودهم من أحداث ، ثم بالملوك الذين عاصروهم وما كان فى زمانهم من حروب وحوادث ، ثم ذكر الأمم التى جاءت بعد الأنبياء الى أن ظهر الاسلام .

وفى القسم الخاص بالاسلام وما بعده راعى ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا عاما بعد عام منذ الهجرة الى سنة ٣٠٢ فذكر فى كل سنة ما وقع فيها من حوادث تستحق الذكر . فاذا كانت الحادثة تستغرق سنوات جزأها ، أو أشار اليها ، ثم عاد اليها بالتفصيل فى موضعها الملائم .

وهـذه الطريقة هي طريقة الحوليات المعتمدة عـلى توقيت الأحداث بالسنين والشهور والأيام « وهذا ضابط انفرد به مؤرخو المسلمين عن نظرائهم من اليونان والرومان وأوروبا في العصور الوسطى ، قال المؤرخ الانجليزي بسكل Buckle : « ان التوقيت على هـذا النحو لم يعرف في أوروبا قبل عام ١٥٩٧ م » [١] .

ولم يكن الطبري مخترع هذه الطريقة ، فقد سبقه اليها بعض مؤرخي المسلمين ، مثـل الهيثم بن عـدي المتوفى سنة ٢٠٧ [٢] وجعفر بن محمد بن الأزهر المتوفى سنة ٢٧٦ [٣] وعمار بن وسيمة المصري المتوفى سنة ٢٨٩ هـ [٤] والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ مؤلف كتاب التاريخ الكبير على نظام السنوات .

ثم حاكاه في هـذا النهـج ابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء ، وخالفهم اليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن خلدون ، اذ كتبوا الحوادث كاملة متصلة وان استغرقت سنوات .

---

(١) علم التاريخ عند العرب ٦٧ فصـل كتبـه الأستاذ عبد الحميد العبادي في كتاب علم التـاريخ تأليف هرنشـو وترجمه العبادي .

(٢) له كتاب في التاريخ رتبه على السنين (الفهرست ١٤٦ ووفيات الأعيان ٢/٢٦٩) .

(٣) له كتاب مثله (الفهرست ومعجم الأدباء ٧/١٨٦) .

(٤) حسن المحاضرة ١/٢٦٥ .

٤ — الأخبار العامة

أما الأخبار التى لا ترتبط بزمن معين فقد كان يختم بها الحديث عن كل خليفة ، فبعد أن يذكر الأحداث فى عهده مرتبة على السنين يذكر أوصافه وأخلاقه وبعض نوادره .

كقوله : ان الخليفة المهدى كان طويلا ، لحمه يابس على عظامه ، وكان جعد الشعر ، أما لونه فقد قيل انه كان أسمر ، وقيل انه كان أبيض ، وكان فى عينه اليمنى فى قول بعضهم نكتة بياض ، وقال بعضهم كان ذلك بعينه اليسرى .

وكان اذا جلس للمظالم يقول : أدخلوا علىّ القضاة ، فلو لم يكن ردى للمظالم ، الا للحياء منهم لكفى .

وهكذا يستطرد فى ذكر مسائل شتى فى نحو عشر صفحات[1].

وبعد أن أرخ للحوادث فى عهد الرشيد عقب بنبذة من سيرته ، فى نحو عشر صفحات ، ذكر فيهما أمورا ، منها أنه كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته ، وكان اذا حج اصطحب معه مائة من الفقهاء ، وأبنائهم ، واذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة ، وكان لا يضيع عنده احسان محسن ، وكان يحب الشعراء والشعر ، ويميل الى أهل الأدب والفقه [2] .

---

(١) التاريخ ١٠/١١٣ .
(٢) الجزء العاشر ١١٣ .

٥ — تسجيل النصوص الأدبية

جرى الطبرى على الاكثار من تسجيل النصوص الأدبية من شعر ، وخطابة ، ورسائل ، ومحاورات ، فى مناسباتها التاريخية .

وهو فى هذا يحاكى سابقيه من المؤرخين والأدباء .

ذلك أن رواة الأخبار القدماء كانوا يحرصون على تدوين الشعر المتصل بالموضوع الذى يؤرخونه ، كلفا بالشعر من ناحية ، ورغبة فى توثيق الحادث أو الخبر ، والتشويق اليه من ناحية ثانية ، كما نرى فى كتاب (التيجان فى ملوك حمير) لعَبيد بن شَرْية برواية أبى محمد عبد الملك بن هشام (١) ، وفى كتاب (نهاية الأرب فى أخبار الفرس والعرب) للأصمعى (٢) ، وكتاب (السيرة النبوية) لابن هشام مع أنه أغفل كثيرا من الشعر الذى كان ابن اسحاق دونه فى الكتاب ، ولكن بقى فى سيرة ابن هشام ما يقرب من خمسها شعرا . وكتاب (وقعة صفين) لنصر بن مزاحم المنقرى (٣) .

وكان رواة الأدب يحلون بالتاريخ كثيرا من القصائد ،

---

(١) طبع فى حيدر أباد دكن بالهند سنة ١٣٤٧ وبذيله أخبار عبيد بن شرية .

(٢) مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٩٠٤ ، ١٢٧٣ .

(٣) نشره الأستاذ عبد السلام هارون .

فيبينون المناسبات التى قيلت فيها ، أو الأحداث المذكورة بها ، والأشخاص المتصلين بها ، ويتعرضون لأيام العرب فى الجاهلية والاسلام .

كذلك كان اللغويون يعرضون ما يتصل بدراسة الغريب والأمثال واللهجات ، من ذكر الأماكن والقبائل والرجال والحوادث والأخبار والأقاصيص والأيام .

ومن هنا امتزج الأدب بالتاريخ ، وصار من المألوف أن يكون المؤرخ راوية للأدب ، وأن يكون راوية الأدب مؤرخا كأبى عبيدة (٢٠٩ أو ٢٠٨ أو ٢١٣) [١] والهيثم بن عدى (٢٠٩) [٢] ومحمد بن حبيب (٢٤٠) [٣] والأصمعى (٢١٦ أو ٢١٤) [٤] وأبى سعيد السكرى (٢٧٥) [٥] .

١ — من الخطب التى أوردها خطبة زياد بالبصرة سنة ٤٥ التى منها [٦] : أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العَمْياء ، والفَجْر — الفجور والتمادى فى المعاصى — الموقد لأهله النار الباقى عليهم سعيرها ، ما يأتى سفهاؤكم ، ويشمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ،

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ١١٤ جورجى زيدان .

(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ٥٠ .

(٣) الفهرست ١٠٦ .

(٤) تاريخ آدب اللغة العربية ٢/ ١١٥ .

(٥) تاريخ بغداد ٧/ ٢٩٦ .

(٦) التاريخ ٦/ ١٢٤ .

ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بآى الله ، ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ..

حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما واحراقا . انى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله ، لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير جبرية وعنف .

وانى أقسم بالله لآخذَنّ الوَلِيّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل أخاه ، فيقول : انجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْدٌ ، أو تستقيم لى قناتكم .

ان كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى .

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقناه ، ومن حَرّق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه ..

٢ — ومنها خطبة الحجاج بالكوفة (١) سنة ٧٥ وخطبة عبد الملك بن مروان لما قتل عمرو بن سعيد الأشدق بدمشق (٢) ، وخطبة خالد القسرى بمكة (٣) وخطبة للحسين ابن على فى أصحابه (٤) ، وخطبة لمحمد بن الحنفية فى جمع

---

(١) التاريخ ٧/ ٢١٠ .
(٢) التاريخ ٧/ ١٧٥ .
(٣) التاريخ ٨/ ٨٠ .
(٤) التاريخ ٦/ ٢٢٩ .

من الكيسانية [1] ، وخطبة لعبيدة بن هلال فى جماعة من أصحابه الخوارج وجماعة من أنصار عبد الله ابن الزبير [2] ، وخطبة لسليمان بن صرد فى جمع من الشيعة [3] ، وخطبة لعبد الله بن الزبير فى أهل مكة لما قتل الحسين [4] ، وخطبته لما بلغه نبأ قتل أخيه مصعب [5] .

٣ — وفى الكتاب نصوص كثيرة من الحوار ، كهذا الذى دار بين عبد الله بن الزبير وأمه أسماء حينما حاصره الحجاج بمكة ، ويئس من مؤازرة أصحابه [6] ، وكالحوار الذى دار بين الخوارج والمهلب بن أبى صفرة [7] .

٤ — وبه رسائل شتى ، كرسالة المختار الثقفى الى محمد ابن الحنفية [8] ، ورسالته الى عبد الله بن الزبير [9] ، ورسالة عبد الله بن الزبير الى يزيد بن معاوية [10] ، ورسالة من مروان ابن محمد الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك [11] ، وكتاب نصر بن سيار الى مروان بن محمد [12] .

٥ — أما الشعر فكثير كثرة تسترعى النظر .

منه قول حارثة بن بدر فى مدح زياد [13] .

---

(١) التاريخ ٧/٩٧ .
(٢) التاريخ ٧/٥٦ .
(٣) التاريخ ٧/٦٩ .
(٤) التاريخ ٦/٢٧٣ .
(٥) التاريخ ٧/١٩٠ .
(٦) التاريخ ٧/٢٠٢ .
(٧) التاريخ ٧/١٩١ .
(٨) التاريخ ٧/١٢٧ .
(٩) التاريخ ٧/١٣٣ .
(١٠) التاريخ ٧/٣ .
(١١) التاريخ ٨/٢٩٣ .
(١٢) التاريخ ٩/٩٢ .
(١٣) التاريخ ٦/١٢٦ .

ألا مَنْ مبلغ "عنى زياداً

فنعم أخو الخليفة والأميرُ

فأنت امام مَعْدَلة وقصد

وحزم حين تحضرك الأمور

أخوك خليفة الله بن حرب

وأنت وزيره نعم الوزير

بأمر الله منصور مُعان"

اذا جار الرعية لا تجور

وقول الطفيل بن عامر بن واثلة فى هجاء قطرى بن الفجاءة زعيم الأزارقة ، لما هرب من المهلب بن أبى صفرة ، وهزم المهلب زعيم الأزارقة عبد ربه الكبير وقتله (١) :

لقد مسَّ منا عبدَ ربٍّ وجُنْدَهُ

عقاب فأمسى سَبْيُهم فى المقاسم

وما قطرىُّ الكفر الا نعامة

طريدٌ يُدَوِّى ليله غير نائم

اذا فرَّ منا هاربا كان وجهه

طريقا سوى قصد الهُدَى والمعالم

فليس بمنجيه الفرار وان جرت

به الفلك فى لج من البحر دائم :

... وكذلك قول كعب الأشقرى فى مدح المهلب لما انتصر على الأزارقة (٢) ، وتأييد عدى بن الرقاع العاملى

(١) التاريخ ٨/ ٢٧٤ . (٢) التاريخ ٨/ ٢٧١ .

لعبد الملك اذ سار لقتال مصعب بن الزبير [1] ورثاء هند بنت زيد لحجر بن عدى [2] الشيعى الشهيد ، وتعبير عبيدة الكندى لمحمد بن الأشعث لأنه تخلى عن نصرة حجر ابن عدى [3] ورثاء عبد الله بن الحر لشهداء كربلاء [4] .
وقول يزيد بن مفرغ الحميرى فى التهكم بمعاوية لما استلحق زيادا :

ألا أبلغ معـــاوية بن حـــرب
مُغَلْغَلَةً عن الرجـــل اليمـــانى
أتغضب أن يقـال أبـــوك عَفٌ
وترضى أن يقال أبـــوك زانى ؟
فأشهد أن رِحْمـــك من زياد
كرِحْم الفيــل من ولد الأتان [5]

كذلك سجل كثيرا من شعر الخـــوارج كعيسى بن فاتك [6] ، ومعاذ بن جوين [7] .

---

(1) التاريخ ٧/١٨١ .
(2) التاريخ ٦/١٥٧ .
(3) التاريخ ٦/١٦٠ .
(4) التاريخ ٦/٢٧٠ .
(5) التاريخ ٦/١٧٧ مغلغلة : رسالة سائرة ذائعة . الرحم: بكسر الراء القرابة وهو يشير بقرابة الفيل من الحمار الى خرافة كانت معروفة ، فقد زعموا أن الحمار والفيل اجتمعا فى مرعى فطرد الفيل الحمار فقال له : لماذا تطردنى مع اشـــتباك الرحم بينى وبينك ؟ فقال الفيل : من أين هذا الرحم ؟ قال الحمار من أن بيننا شبها فى شيئين ..... فقبل الفيل هذه القرابة ، فسار بها المثل ، فقيل كرحم الفيل من الحمار .
(6) التاريخ ٦/١٧٤ .
(7) التاريخ ٦/١٠٧ .

مآخذ عليه

ليس من السهل أن يسلم كتاب الطبرى من مآخذ تتناول المادة والمنهج .

— ١ —

فقد حرص على تسجيل الروايات ، ولم يعدل رواتها أو يجرحهم ، كما كان يصنع علماء الحديث ، ولو أنه طبق منهج المحدثين — وقد كان من علماء الحديث — لوثق بعض الروايات ، وجرح بعضها . ولعل مرد ذلك الى أن الحديث مصدر من مصادر التشريع ، تقام عليه الأحكام ، فلابد من توثيق الروايات أو تضعيفها ، أما التاريخ فلا تقام أحكام شرعية عليه .

لكن هذا لا يعفيه من النقد ؛ لأن المؤرخ لا يصح أن يعول على الرواية وحدها ، وبخاصة فى تاريخ عصره الذى عاش فيه وشاهد أحداثه ، فربما كان الراوى ثقة ، ولكنه متأثر بعاطفة خاصة تزين له وجهة ما ، أو تصرفه عن حقيقة ، وربما انخدع فنقل عن غير ثقة ، أو صدّق أمرا بغير أن يحققه ، فلا مندوحة اذاً من نقد الروايات والرواة ، والرجوع الى الوثائق الأصلية .

وقد كان ابن الكلبى يذهب الى الأدْيار والكنائس فيسأل عن المدونات كما قال الطبرى : « وقد حدّثتُ عن

هشام بن محمد الكلبى أنه قال : انى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة من بيع الحيرة وفيهما ملكهم وأمورهم كلها » [1] .

وهو بهذه النظرة الى التاريخ حصره فى نطاق المعرفة مجردة من العظة والتأسى ، على نقيض نظرة ابن مسكوية فيما بعد ، لأن ابن مسكويه (٤٢١) نظر الى التاريخ على أنه تجارب مرت بالسلف ، يحسن بالخلف أن يطلعوا عليها ، ويسترشدوا بها ، فان أمور الدنيا متشابهة ، وأحوالها متناسبة ، وما يعرفه الانسان من تجارب الماضين كأنه تجارب له ، فيستقبل أموره استقبال الخبير ، ويعرفها قبل وقوعها ، فيقابلها بأشكالها ، وشتان بين من كان بهذه الصورة ومن كان غرا لا يتبين الأمر الا بعد وقوعه .

لهذا اقتصر فى تاريخ ما قبل الاسلام على ما له عظة وفائدة ، وعلى ما يتصل بالسياسات ، وعمارات البلدان ، وجمع كلمة الرعية ، واصلاح الجنود وحيل الحروب .

وغايته أن يكون علم التاريخ علما للوزراء والساسة « فلذلك جمعت هذا الكتاب ، وسميته تجارب الأمم ، وأكثر الناس انتفاعا به أو فرهم قسطا من الدنيا ، كالوزراء ، وأصحاب الجيوش ، وسواس المدن .. ثم سائر طبقات الناس » [2] .

(١) تاريخ الطبرى ٢/٣٧ .
(٢) مقدمة تجارب الأمم لابن مسكويه .

فلم يتعرض لمعجزات الأنبياء ، ولم يتبسط فى أخبار ما قبل الاسلام ، الا فى أخبار قومه الفرس .

ولم يكن الطبرى موفقا فى الاقتصار على تسجيل الروايات والاكتفاء بالاحالة الى غيره ، لأن التاريخ -- كما قال ابن خلدون -- محتاج الى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ، وليس من الصواب الاعتماد على النقل ، بل لابد من الاحتكام الى اصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الانسانى ، وكذلك لابد من قياس الغائب من الأحداث والأسباب بالحاضر ، وقياس الحاضر بالذاهب ، لأن المؤرخ اذا توخى ذلك أمن العثور والبعد عن المزلات والمغالط .

ويزيد ابن خلدون على هذا أن كثيرا من المؤرخين والمفسرين والعلماء وقعوا فى أغلاط ، لأنهم اعتمدوا على النقل وحده ، ولم يعرضوا ما نقلوه على طبائع الكائنات ، ولم يقيسوا الأمور على أشباهها ، ولم يحكموا النظر والبصيرة فى الأخبار التى دونوها ، ثم يضرب أمثلة على هذا [1] .

ومع هذا فقد أدى الطبرى للتاريخ عملا جليلا ، اذ حفظ هذه الروايات من الضياع ، لأنه لو لم يجمعها هذا الجمع ، وينسقها هذا التنسيق ، لتبددت ، وعفى عليها الزمان .

(١) مقدمة ابن خلدون ٢١٩ .

لهذا قال المؤرخ الانجليزى الأستاذ ترفليان Trevellian ان محافظته على الروايات المختلفة هى أعظم ما أهداه الى الباحث الحديث ، وبخاصة حينما يريد اعادة النظر فى تاريخ الحوادث فى صدر الاسلام .

والروايات التى يعوزها النقد كثيرة فى الكتاب :

١ - منها ما نقله عن هبوط آدم من الجنة الى الهند ، وأن حـواء هبطت بجدة ، فجاء فى طلبها حتى اجتمعا ، فازدلفت اليه حواء . فلذلك سمى المكان المزدلفة ، وتعارفا بعرفات ، فلذلك سميت عرفات .

وأورد آراء أخرى فى المكان الذى هبط اليه آدم وحواء وابليس والحية .

ومن العجيب أنه علق بما يؤيد هبوط آدم الى الهنـد بقوله : ان ذلك مما لا يدفع صحته علماء الاسـلام وأهل التوراة والانجيل ، والحجة قد ثبتت بأخبار بعض هؤلاء .

وذكر روايات تنسب الطيب الى أشجار الهند ، لأن آدم لما هبط اليها علق بها طيبه .

ثم زاد على هذا أن الجبل الذى أهبط عليه آدم كانت ذروته من أقرب ذرى جبال الأرض الى السماء ، وأن آدم حين أهبط عليه كانت رجلاه عليه ورأسه فى السماء ، يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم ، فكان يأنس بذلك ، وكانت الملائكة تهابه . فشكت الى الله ، فنقص من طوله (١) .

(١) التاريخ ١/٦٠ - ٦٣ .

٢ ــ كذلك روى عن أشخاص عن السدى أن امرأة العزيز قالت : يا يوسف ما أحسن شعرك ! قال : هو أول ما ينثر من جسدى . قالت : ما أحسن عينيك ! قال : هى أول ما يسيل الى الأرض من جسدى . قالت : ما أحسن وجهك ! قال : هو للتراب يأكله . فلم تزل به حتى أطمعته ، فهمت به وهمّ بها ، فدخلا البيت ، وغلقت الأبواب ، وذهب ليحل سراويله ، فاذا هو بصورة يعقوب قائما فى البيت قد عض على اصبعه يقول : يا يوسف لا تواقعها فانما مثلك مالم تواقعها مثل الطير فى السماء لا يطاق ، ومثلك ان واقعتها مثله اذا مات وقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يعمل عليه ، ومثلك ان واقعتها مثل الثور حين يموت ، فيدخل النمل فى أصل قرنيه ، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه . فربط يوسف سراويله ، وذهب ليخرج ، فأدركته ، فأخذت بمؤخر قميصه من خلفه ، فخرقته حتى أخرجته منه وسقط ، وطرحه يوسف ، واشتد نحو الباب .

وقال بعضهم انه رأى صورة يعقوب عاضا على اصبعه . وقال آخرون انه رأى فى الحائط مكتوبا « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » [١] .

ولو أنه علق على هــذا لنفاه ، لأنه من الاسرائيليات والأقاصيص التى ولدها الخيــال ، فان القــرآن الكريم

---

(١) كتاب التاريخ ١٧٣/١ .

— وهو المصدر المتفرد بالثقة — لم يزد على قوله « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ، ثم ان القرآن لم يكن قد نزل بعد ، فكيف قرأ يوسف على الجدار قوله تعالى « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » ؟ وليس فى التوراة شىء من ذلك التفصيل الذى نسجته الأساطير .

جاء فى العهد القديم : قالت له امرأة سيده : اضطجع معى ، فأبى . وقال لها : ان سيدى قد وكل الى يدى كل ماله فى بيته ، ولم يمسك عنى شيئا غيرك ، لأنك امرأته ، فكيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطىء الى الله ؟ وكانت كلما عرضت عليه أن يضطجع معها رفض ، ثم أمسكته من ثوبه ، وقالت : اضطجع معى . فترك ثوبه فى يدها ، وخرج هاربا ، فصرخت وزعمت لمن فى البيت أنه كان يريد مضاجعتها ، فلما أبت ترك ثوبه وهرب .

ولما جاء سيده أخبرته ، فغضب ووضعه فى السجن [1] .

على أنه ذكر هذا وغيره فى كتابه التفسير ، وزاد عليه قوله : فان قال قائل : كيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو نبى ؟ قيل ان أهل العلم اختلفوا فى ذلك ، فقال بعضهم : كان يوسف ممن ابتلى من الأنبياء بخطيئة ، ليكون على وجل من الله ، اذا ذكرها ، فيجد فى طاعته اشفاقا منها ، ولا يتكل على عفو الله ورحمته .

(١) العهد القديم سفر التكوين الاصحاح ٣٩ .

وقال آخرون : بل ابتلاه الله بذلك ليعرفه نعمته عليه بصفحه عنه .

وقال غيرهم : بل ابتلاه الله ليجعله اماما لأهل الذنوب فى رجاء رحمته ، وترك اليأس من عفوه عنهم اذا تابوا .

ثم عقب على هذا بقوله : أما الذين خالفوا أقوال السلف ، وتأولوا القرآن بآرائهم ، فانهم قالوا فى ذلك أقوالا مختلفة .

قال بعضهم : همت المرأة بيوسف ، وهم بها ليضربها ، لولا أنه رأى برهان ربه ، فامتنع عن أذاها ، لأنها ارتدعت من قبل نفسها ، والشاهد على صحة هذا قوله تعالى « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » .

وقال آخرون : معنى الكلام ولقد همت به ، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف فى قوله تعالى « وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » كأنهم وجهوا معنى الكلام الى أن يوسف لم يهم بها ، ولو لم ير برهان ربه لهم بها .

وعلق على هذا بقوله : ان هذين القولين فاسدان ، لأن العرب لا تقدم جواب لولا عليها ، فلا يقولون « لقد قمت لولا زيد » وهم يريدون لولا زيد لقمت ، مع خلاف هذين القولين لجميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين يؤخذ عنهم تأويله .

ثم علق على هذه الأقوال وغيرها فى كتابه التفسير بما لم يعلق بشىء منه فى كتابة التاريخ اذ قال : وأولى

الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال ان الله أخبر عن همّ يوسف وامرأة العــزيز كل منهما بصاحبه ، لولا أن رأى يوسف برهان ربه ، وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ما همّ به من الفاحشة ، وجائز أن تكون تلك الآية احدى ما ذكروه .

والصواب أن نؤمن بما قاله تعالى ، وأن نترك ما عداه الى عالمه [1] .

٣ — وروى أنهم اختلفوا فى الشاهد الذى من أهل زوجة العزيز القائل « ان كان قميصه قدّ من قبُل فصدقت وهو من الكاذبين » .

فقال بعضهم انه ابن عمّها ، وقال بعضهم كان صبيا فى

---

(١) التفسير ١٢/١٠٨ — ١١٣ .

وللزمخشرى تعليق يشبه تعليق الطبرى ويزيد عليــه ، لأنه بعد أن ذكر كثيرا مما قيل فى أمر يوسف علق بقوله : وهذا أو نحوه مما يورده أهل الحشو . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم بسبيل ، ولو وجدت من يوســف أدنى زلة لنعيت عليه ، وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود ونوح وأيوب وذى النون ، ثم ان الله سماه مخلصا ، فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ثم استنكر الزمخشرى ما قيل من أن يوسف حل تكته ، وتأهب للفاحشة ، ولم يرتدع بنهى ربه ثلاث مرات ، وبالصيحات التى سمعها ثلاثا ، وبغير ذلك مما قيل فى نصحه وردعه ، وقال ان أوقح الزناة لو حدث له شىء من ذلك لما بقى له عرق ينبض ، فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه.

(الكشاف للزمخشرى ١/٤٦٥) .

المهد ، وذكروا حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه تكلم أربعة وهم صغار فيهم شاهد يوسف .

وعن ابن عباس أن الأربعة الذين تكلموا وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جُرَيْج ، وعيسى بن مريم (١) .

وهذه تفصيلات من توليد الخيال ، وبحسب المؤرخ أن يلتزم الحقائق التاريخية ، ولا يزيد عليهما شيئا مما نسجه القصاص . ولو أن الذى شهد كان طفلا فى المهد ، ونطق قبل سن النطق ، وكان نطقه فيصلا فى قضية معضلة كهذه ، لقضوا فى الوقت نفسه ببراءة يوسف ، ولنجا من السجن الذى عاقبوه به زمنا الى أن ظهرت براءته .

على أنى رجعت الى العهد القديم ، فلم أجد شيئا من هـذا .

٤ — ومن الأخبار التى لم يكن بد من التعليق عليها ما ذكره فى أسباب نكبة البرامكة ، فمنها أن الرشيد استنكف من دخول يحيى بن خالد عليه بغير اذن ، فاعتذر يحيى بأن الخليفة كان قد عوده على ذلك ، فأما وقد كره ما كان يحب ، فان يحيى راض بأن يكون فى الطبقة الثانية أو الثالثة من أهل الاذن ، فاستحيا الرشيد وقال له : ما أردت ذلك ولكن الناس يقولون .

(١) التاريخ ١/ ١٧٤ .

ومنها أن الرشيد تأثر بوعظ محمد بن الليث فى رسالته التى قال له فيها : ان يحيى بن خالد لا يغنى عنك من الله شيئا ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت اذا وقفت بين يديه ، فسألك عما عملت فى عباده وبلاده ، فقلت يا رب انى استكفيت يحيى أمور عبادك ، أتراك تحتج بحجة يرضى بها الله ؟

ومنها أن جعفر أطلق سراح يحيى بن عبد الله بعد أن كان الرشيد قد أمر بحبسه .

ومنها أنهم أسرفوا أيما اسراف ، وأنفقوا على قصورهم وخدمهم وحشمهم كما ينفق الرشيد ، واستمالوا الشعراء والعلماء بالهبات والجوائز .

ولا تخرج الروايات التى ذكرها عن اعتزازهم بدالتهم على الدولة ، واغترارهم بمكانتهم عند الرشيد ، وبذخهم وسرفهم واستهانتهم أحيانا بأمر الخليفة ، وما جره ذلك من حسد الناس لهم ، ووشاياتهم بهم .

ثم ذكر رواية أخرى ملخصها أن الرشيد كان يحب أخته عباسة وجعفر بن يحيى البرمكى ، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب ، فعرض على جعفر أن يزوجه عباسة ليحل له النظر اليها اذا اجتمعا فى مجلسه ، وتقدم اليه ألا يمسها ، فزوجها منه على ذلك ، لكنه واقعها وأولدها غلاما ، فخافت على نفسها من الرشيد ان علم بذلك ، فبعثت بالغلام الى مكة ، ولم يزل الأمر مستورا عن الرشيد حتى أخبرته

بأمرها احدى جواريها . فغضب الرشيد على جعفر ، وأمر بضرب عنقه [1] .

ولو أنه احتكم الى طبائع العرب ، والى أخلاق هارون لاستبعد هذه الرواية ، او فندها تفنيدا ، كما فعل ابن خلدون فيما بعد .

ذلك أن ابن خلدون لم يذكر هذه القصة فى كتاب التاريخ [2] .

أما فى المقدمة فقد ذكرها وأبطلها ، فقال :

ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد بالبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى ، وأنه لكلفه بأن يحضرا مجلس شرابه أذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة ، حرصا على اجتماعهما فى مجلسه ، وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة ، لما شغفها بحبه ، حتى واقعها فى حالة سكر ، فحملت ، ووشى بذلك للرشيد فغضب ، وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ، وأنها بنت عبد الله بن عباس ، ليس بينها وبينه الا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده .

والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبى الخلفاء بن عبد الله

---

(١) التاريخ ١٠/٧٩ .
(٢) العبر ٣/٢٢٣ .

ترجمان القرآن ، بن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى ابنة خليفة أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية ، قريبة عهد ببداوة العروبة ، وسذاجة الدين البعيدة عن عادات الترف ومراتع الفواحش .

فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ؟ وأين توجد الطهارة والذكاء اذا فقدا من بيتها ؟ وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ، رفع قومها من قدره وقدر أبيه ؟ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالى الأعاجم ، على بعد همته وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها من مثله مع مولى من موالى دولتها وفى سلطان قومها ، واستنكره ، ولج فى تكذيبه .

وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟

وانما نكب البرامكة ، ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية .. الخ [1] .

على أنه كان فى قليل من المواضع ينقد ويعلق مثل قوله : قال أبو جعفر : والصحيح عندنا فى ذلك كذا . وقوله : أنا أشك فى ذلك . وقوله : وقد زعم بعضهم كذا .

وهذه الطريقة النقدية هى التى جرى عليها فى التفسير ،

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٣٠ .

فلم ينقل من تفسير غير موثوق به ، ولم يستمد شيئا من كتاب محمد بن السائب الكلبى ، ولا من كتاب مقاتل بن سليمان ، ولا محمد بن عمر الواقدى ، لأنهم فى رأيه أظناء (١) .

— ٢ —

ذكر العلماء والرواة ، ولم يذكر مؤلفاتهم التى نقل منها ؛ ولأكثرهم كتب عدة ، فلا يستطيع الباحث أن يعرف عن أيها نقل .

ولو أنه ذكر أسماء الكتب لسهل على الباحثين الرجوع الى ما بقى منها ، ولصار من الميسور أن نعرف مؤلفات القدماء ، وأن ننقب عنها ، وأن نحقق ما سلم من الضياع .

فاذا ذكر سيف بن عمر لم نعلم أى كتبه أراد : الفتوح ، أم الردة ، أم موقعة الجمل ؟ واذا ذكر الواقدى لم نعرف أى كتبه قصد : المغازى ؟ أم الردة ؟ أم التاريخ الكبير ؟

وحين يذكر هشام بن الكلبى لا نستطيع أن نتبين الى أى كتبه رجع ، لأن له كتبا كثيرة فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، وفى تاريخ الحيرة والعراق واليمن ، أوصلها ابن النديم الى مائة وأربعين (٢) . وأوصلها ابن حجر الى مائة وخمسين (٣) .

---

(١) معجم الأدباء ١٨ .
(٢) الفهرست ١٤٠ .
(٣) لسان الميزان ٦/١٩٦ .

وهكذا الحال مع أبى مخنف لوط بن يحيى ، والواقدى ، وغيرهم من أصحاب المؤلفات .

— ٣ —

كان فى سرد الروايات المتخالفة يقطع الرواية اذا ما وصل الى موضع خلاف ، ليذكر الرواية أو الروايات المخالفة ، فاذا ما انتهى من ذكر الخلاف عاد الى استئناف الكلام من حيث توقف وقطع ، مشيرا الى أنه رجع الحديث الى الرواية الأولى . وبهذا كانت الروايات كثيرا ما تتداخل وتتشابك ، حتى ليكرر قوله (دخل حديث بعضهم فى بعض) وهذه الطريقة تشتت القارىء ، وتشغله بالفروع عن الحادث الأصيل ، على ما فيها من أمانة ودقة .

وكان خيرا منها لو أنه عرض كل رواية عرضا كاملا ، ثم أعقبها بغيرها ، ليستطيع القارىء أن يلم بها مكتملة ، ويوازن بينها ، ويرجح بعضها على بعض .

وكان أحيانا يقطع الرواية الواحدة بأخبار عارضة ، ثم يعود الى استكمالها .

من هذا قوله فى مقتل أبى مسلم الخراسانى :

حدثنى أحمد بن زهير قال : حدثنا على بن محمد قال : حدثنا سلمة بن محارب ، ومسلم بن المغيرة ، وسعيد بن أوس ، وأبو حفص الأزدى ، والنعمان أبو السرى ، ومحرز ابن ابراهيم ، وغيرهم ، أن أبا مسلم كتب الى أبى العباس يستأذنه فى الحج فى سنة ١٣٦ وانما أراد أن يصلى بالناس .

فأذن له ، وكتب أبو العباس الى أبى جعفر وهو على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان أن أبا مسلم كتب الىّ يستأذن فى الحج ، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه اذا قدم يريد أن يسألنى أن أوليه اقامة الحج للناس ، فاكتب الىّ تستأذننى فى الحج ، فانك اذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك .

فكتب أبو جعفر الى أبى العباس يستأذنه فى الحج ، فأذن له .

فلما وافى الأنبار قال أبو مسلم : أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا ؟ واضطغنها عليه .

قال على : قال مسلم بن المغيرة : استخلف أبو جعفر على أرمينية فى تلك السنة الحسن بن قحطبة .

وقال غيره : استعمل رضيعه يحيى بن مسلم بن عروة ، وكان أسود مولى لهم . فخرج أبو جعفر وأبو مسلم الى مكة ، فكان أبو مسلم يكسو الأعراب فى كل منزل ، ويصل من سأله ، وكسا الأعراب البتوت [1] والملاحف ، وحفر الآبار ، وسهل الطرق ، فكان الصوت له ، فكان الأعراب يقولون هذا المكذوب عليه . حتى قدم مكة ، فنظر الى اليمانية ، وقال : لنيزك : يا نيزك ، أى جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان سريع الدمعة .

ثم رجع الحديث الى حديث الأولين ، قالوا : لما صدر الناس عن الموسم ، نفر أبو مسلم قبل أبى جعفر فتقدمه ،

(١) البتوت : جمع بت : الطيلسان من خز ونحوه .

فأتاه كتاب بموت أبى العباس واستخلاف أبى جعفر ، فكتب أبو مسلم الى أبى جعفر يعزيه بأمير المؤمنين ، ولم يهنئه بالخلافة ، ولم يقم فى مكانه حتى يلحقه ولم يرجع ، فغضب أبو جعفر (١) .

— ٤ —

عنى بالتاريخ السياسى وحده ، اذ أرخ للملوك والحروب والقواد ، ولم يسجل الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للمسلمين قبل عصره وفى عصره .

وقد يخفف من هذا المأخذ أنه ليس بدعا فى هذا الاتجاه بين مؤرخى عصره ، ولا بين مؤرخى العالم قبل العصر الحديث ، فقد نهجوا جميعا هذا النهج ، ومعذرتهم فى عنايتهم بتاريخ الملوك ، أنهم المسيطرون على الشعوب ، ولم يكن للشعوب ولا للرأى العام صوت فى العالم الى القرن الثامن عشر ، حتى نطالب الطبرى بأن يسجل مظاهر قوتها ، ونهضتها ، ونظمها العامة فى الاجتماع والاقتصاد والعادات .

وحسب الطبرى أنه كما قال مارجليوث :

أدى للتاريخ الاسلامى ، ما أداه أصحاب الكتب الستة للحديث ، اذ اختار من روايات الأخباريين ما صح عنده أنه مادة صحيحة للتاريخ ، وزاد على ذلك عملا شاقا ، هو ترتيب مواد التاريخ ترتيبا مسلسلا الى عصره .

(١) التاريخ ٩/١٥٩ .

— ٥ —

تنقل فى أهم الأقطار الاسلامية التى كانت مراكز الثقافة فى عصره ، وزار مدنا كثيرة ، لكنه لم يدون تاريخها الذى شاهده ، ولم يسجل شيئا من مشاهداته ، ولم يتحدث عن الخرائب والآثار التى مر بها ، وكانت حديث الناس .
وكذلك عاصر كثيرا من الأحداث ، لكنه لم يسجل فيها رأيه .
على حين أن المسعودى سجل فى كتبه كثيرا من ملاحظاته وتحدث عن عادات الشعوب التى رآها ، وعن عقائدها وأديانها ونظمها الاجتماعية (٢) .

— ٦ —

اضطره نظام السنين الى تقطيع الحوادث ، وتوزيعها على أوقات حدوثها ، وفى هذا تشتيت لها ، وتمزيق لوحدتها ، وتصعيب على الذى يريد الالمام بالحادث الواحد متكاملا .

— ٧ —

قد يؤخذ عليه أنه أولى تاريخ المسلمين عنايته ، ففصل القول فيه ، على حين أوجز فى تاريخ غيرهم .
وهذا حق ، لكن عذره فى ذلك أنه مؤرخ مسلم يعنيه

(٢) توفى المسعودى سنة ٣٤٦ وله فى التاريخ كتابان مروج الذهب واخبار الزمان .

تاريخ المسلمين أكثر مما يعنيه تاريخ سواهم ، وأنه فصل تاريخ الفرس قبل الاسلام الى الحد الذى أسعفته به المصادر ، فلما بلغ الفتح الاسـلامى لبلادهم ، صار تاريخ الفرس وتاريخ المسلمين موضوعا واحدا لا يعزل بعضـه عن بعض .

وأما الروم فقد نقل عن الثقاة معالم تاريخهم الى أن فتح المسلمون مصر والشام ، اذ صارت مصر والشام جزءا من الدولة الاسلامية يشمله تاريخها العام .

ثم انه لم يكن يتوقع منه أن يؤرخ للامبراطورية الرومية الى عصره ، لأنه لا يعنيه ، بل الذى يعنيه علاقتهم بالدولة الاسلامية ، وقد أولاها عنايته .

— ٨ —

وقد يؤخذ عليه أنه ذكر أحيانا خرافات واسرائيليات ، ولم يقدم لها أو يعلق عليها ، بما يدل على تكذيبه لها .

١ — كقـوله : حدثنا الحسين بن محمد بن عمرو العبقرى قال : حدثنا أبى قال : أخبرنا أسباط عن السدى قال : تزوج اسحاق امرأة فحملت بغلامين فى بطن ، فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان فى بطنها ، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص ، فقـال عيص : والله لئن خرجت قبلى لأعترضن فى بطن أمى ولأقتلنها . فتأخر يعقوب ، فخرج عيص قبله ، وأخـذ يعقوب بعقب عيص ، فخرج ، فسمى

(عيص) ، لأنه عصى فخرج قبل يعقوب ، وسمى يعقوب ، لأنه خرج آخذا بعقب عيص .

وكان يعقوب أكبرهما فى البطن ، ولكن عيصا خرج قبله ، وكبر الغلامان فكان عيص أحبهما الى أبيه ، وكان يعقوب أحبهما الى أمه .. [1] .

وهذا الذى ذكره قريب مما فى التوراة [2] .

٢ - وذكر أن قابيل لما قتل أخاه هابيل بكاه آدم ، فقال فيما حدثنا ابن حميد عن سلمة عن غياث بن ابراهيم عن أبى اسحاق الهمدانى عن على بن أبى طالب :

تغيرت البـلاد ومن عليها
فلون الأرض مغبر قبيح
تغـير كل ذى لون وطعـم
وقل بشاشة الوجه الصبيح

فأجيب آدم :

أبا هابيـل قد قتـلا جميعا
وصار الحى كالميت الذبيح
وجاء بِشـرة قد كان منها
على خوف فجاء بها يصيح [3]

ولقد كنا نتوقع من الطبرى ألا يذكر هذا الشعر منسوبا

(١) تاريخ الطبرى ١/١٦٤ .
(٢) العهد القديم سفر التكوين . الاصحاح ٢٥ .
(٣) التاريخ ١/٧٢ .

الى آدم ، أو يذكره على سبيل التندر بالقصاص ، والتفكه بالأخباريين ، لأن اللغة العربية لم تكن قد ولدت بعد حتى ينظم بها آدم شعرا ، ولأنه من المستحيل كل الاستحالة أن يبقى ما قاله آدم مذكورا على الزمن ، وبيننا وبينه زمن طويل ، الى حد لا يعلمه الا الله .

٣ - وروى بسند متصل الى وهب بن منبه فى قصة آدم أخبارا مستقاة من التوراة ومن شروح اليهود للتوراة ، كقوله : لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ، ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة يخلدهم ، وهى الثمرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته ، فلما أراد ابليس أن يستنزلهما ، دخل فى جوف الحية ، وكان لها أربع قوائم ، كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله تعالى ، فلما دخلت الجنة خرج من جوفها ابليس ، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته . فجاء بها الى حواء فقال : انظرى الى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها . فأخذت حواء فأكلت منها ، ثم ذهبت بها الى آدم فقالت : انظر الى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها ، وأطيب طعمها ، وأحسن لونها . فأكل منها آدم . فبدت لهما سوآتهما ، فدخل آدم فى جوف الشجرة ، فناداه ربه : يا آدم أين أنت ؟ قال : أنا هذا يا ربى . قال ألا تخرج ؟ قال : أستحى منك يا رب . قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها . ثم قال : يا حواء : أنت التى غررت عبدى

فانك لا تحملين حملا الا حملته كرها ، فاذا أردت أن تضعى ما فى بطنك أشرفت على الموت مرارا .

وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى بطنك حتى غر عبدى ، ملعــونة أنت حتى تتحول قوائمك فى بطنك ، ولا يكون لك رزق الا التراب ، أنت عدوة بنى آدم ، وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك [1] .

وهذا شديد الشبه بما ورد فى التوراة فى الاصحاح الثالث من سفر التكوين .

٤ — ومن هذه الخرافات قوله ان فرعون مصر فى أيام يوسف اسمه الريان بن الوليد [2] ، وفى أيام موسى اسمه فيما ذكروا لى الوليد بن مصعب [3] .

على أن هذا الضرب نادر فى الكتاب ، وهو الى ندرته متصل بأزمان قديمة ، وشعوب بعيدة .

وأغلب الظن أن الطبرى سجل مثل هذه الخرافات لأنها مما سمعه أو قرأه ، ولم يعلق عليها بالتكذيب ، لأنه رسم لنفسه خطــة لم يحــد عنها ، هى أنه يسجل الروايات ، ولا يعقب برأيه ، وقد قال فى مقدمة كتابه انه سيذكر أخبارا عن الماضين ، قد ينكرها القارىء ، أو يستشنعها السامع ،

(١) التاريخ ١/ ٥٤ والتفسير ١/١٨٦ .
(٢) التاريخ ١/١٧٢ .
(٣) التاريخ ١/١٩٩ .

فليعلم أن اللوم على من نقلت عنهم ، وأننى انما سجلت ما سمعت أو قرأت .

ولكن هذا لا ينهض عذرا له فى مجال الدفاع .

ومهما يكن من شىء فان هذا الضرب النادر أخف مما كان يعتقده ويسجله معاصروه ومن بعدهم من مؤرخى الافرنج .

يقول الأستاذ هرنشو Hearnshow لقد تنصر قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧) وظهرت المسيحية على الوثنية فى غضون القرن الرابع الميلادى ، أى قبل الهجرة بقرنين ونصف قرن ، فتحول التاريخ الى أيدى القساوسة والرهبان ، وبقى فى أيديهم زهاء ألف سنة ، ففقد صفاته العلمية التى يتصف بها ، وغدا مشحونا بأخبار الخوارق والكرامات ، من زلازل ، وظهور خنازير ، لكل منها ست أرجل ، ومخلفات مقدسة متداولة ، وما يشبه ذلك .

ثم يقول : ولا يبدأ تحسن الحالة الا فى غضون الحروب الصليبية ، حين جلس النصارى عند أقدام علماء المسلمين ، يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، وعلى الرغم من هذا لم يظهر التاريخ الأوروبى الصحيح الا فى أواخر القرن السادس عشر — أواخر القرن العاشر الهجرى — أى بعد وفاة الطبرى بنحو سبعة قرون (١) .

---

(١) علم التاريخ لهرنشو ترجمة العبادى .

قيمته

لعله قد استبان من موضوعه ومادته ومنهجه أنه كتاب جليل القدر ، عظيم القيمة .

ونستطيع أن نوجز مقومات هذا الحكم فى عدة أمور

— ١ —

هو أول كتاب فى التاريخ العـام ، أكمل به الطبرى ما ابتدأه سابقوه من التاريخ للأحداث أو الأقاليم أو طوائف الرجال كابن سعد واليعقوبى والدينورى والواقدى والبلاذرى وابن اسحاق .

وقد ضاع أكثر ما دون سابقوه ، وبقى هو مسجلا لما ضاع ، فحفظ تراثا نفسيا جديرا بأن يبقى عـلى مر الزمان .

— ٢ —

وهو تمهيد لمن جاءوا بعده ، ومصـدر أصـيل من مصادرهم ، كالمسعودى ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وما زال مصدرا للباحثين الى اليوم .

— ٣ —

على أنه جمع كثيرا من أخبار العرب فى الجاهلية ودونها فحفظها من الضياع ، وكان المؤرخون الذين جاءوا بعده

يعولون على ما ذكره ، ولولاه لفقد الباحثون معارف كثيرة عن العرب وأحوالهم فى جاهليتهم .

— ٤ —

كذلك سجل كثيرا من الحقائق التاريخية عن العصور الاسلامية ، موثقة بالاسناد الى أصحابها ، لولاه لعدت عليها عوامل الاغفال والنسيان ، فحرم التاريخ هذه الآراء ، لأنه دون روايات نقلها من كتب لم يبق الا أقلها ، وروايات سمعها من أشخاص ، لولم يدونها لتوارت فى موجات الزمان .

— ٥ —

ذكر فى تاريخ الفرس كثيرا من الحقائق لا نجدها فى غيره لمن يريد أن يدرس تاريخهم ، حتى لقد اعتمد عليه نولدكه فى معرفة تاريخ الفرس والعرب أيام بنى ساسان .

ولهذا ترجم الى الفارسية فى القرن الرابع الميلادى ، وترجم الى التركية وغيرها بعد ذلك [١] .

---

(١) ترجمه الى الفارسية الوزير السامانى الأديب أبو على محمد بن محمد بن عبد الله العلقمى المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ومن هذه الترجمة نقـــل الى التركية مرتين آخراهما مابين سنة ٩٢٨ و ٩٣٨ هـ ولم تطبع الا سنة ١٢٦٠هـ وترجم من الفارسية الى بعض اللغات اللاتينية ، وطبعت الترجمة سنة ١٨٦٣ والى الفرنسية وطبع سنة ١٨٧٤

على أنه قد تبين من البحث المفصل فى تاريخ الرومان أن الطبرى دقيق فيما ذكره عنهم ، لأنه نقل عن نصارى الشام ، وسمع منهم ، وكانوا هم قد نقلوا من وثائق صحيحة ، وأدوها اليه بأمانة .

فقد ذكر أسماء الأباطرة من الرومان والروم الى نهاية عصر هرقل [(١)] سنة ٦٤١ م (٢١ هـ) وهو العام الذى تم فيه فتح العرب لمصر .

وهؤلاء الأباطرة الذين ذكرهم واحد وستون ، غير من اشتركوا مع أبنائهم ، أو غير أبنائهم ، ومدة حكمهم جميعا ستة قرون وبضع سنوات .

« وقد قابلنا الأسماء التى ذكرها الطبرى بالأسماء التى وردت فى كتب التاريخ المعتمدة ، وقابلنا مدة حكم كل منهم ، فى كتاب الطبرى وفى هذه الكتب ، فذهلنا من المطابقة فى الأسماء والترتيب ومدة الحكم .

= وذكر سيديو فى كتابه تاريخ العرب أن جرجس النصرانى المعروف بالمكين ابن العميد المتوفى سنة ١٢٧٣ م لخصه وذيله . (كشف الظنون ٢٩٨ وتاريخ آداب العرب لجورجى زيدان ٢/١٩٩ ومقال فى مواد تاريخ الطبرى للدكتور جواد على بمجلة المجمع العلمى العراقى ١/١٧٧ ومقدمة طبعة دار المعارف للكتاب بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم) .

(١) التاريخ ٢/٢٥ .

واذا تجاوزنا عن فروق تافهة ، نرجح أنها من أغلاط النساخ ، قطعنا بأن النصارى الذين أخـذ عنهم كانوا يعتمدون على وثائق صحيحة ، ولو أنه أدرك مدى صحة علمهم لاستبدل بكلمة زعموا التى صدر بها بعض رواياتهم كلمة أخرى توثق علمهم .

ومن الخطأ أن نعتمد على المؤلفات الافرنجية الموجزة فى تاريخ الرومان ونخطىء الطبرى . فقد ذكر أن الذى خلف طيباريوس هو ابنه جايوس (١) ، وذكرت المؤلفـات الافرنجية الموجزة أن الذى خلفه هو كاليجيولا .

ولا يحتاج تفسير هذا الخلاف الا الى بحث يسير فى المطولات الافرنجية ، نعرف منه أن كايوس نشأ مـع أبيه بين الجنود ، وكان بسبب صغر سنه ينتعل حذاء عسكريا صغيرا ، وكان جنود الرومان يسمون هذا الحذاء كاليجة ، ومن هنا لقبوا كايوس بكاليجيولا ، أى منتعل الحـذاء العسكرى الصغير ، وأهمل بعض المؤرخين اسمه الحقيقى ، واكتفوا بلقبه ، كما نهمل فى الوقت الحاضر اسم أوليانوف Ulianoff ، ونكتفى بالاسـم الذى اختـاره لنفسه وهو لينين Lenin .وكما نهمل اسم جوزيف بروز Joseph broz حين نتحدث عن رئيس جمهورية يوغوسلافيا ونستعمل الاسم الذى اشتهر به وهو Tito ، لهذا ينبغى ألا نكتفى

(١) التاريخ ٢/٢٥ .

بالأسماء التى وردت فى الكتب الافرنجية الموجزة ، بل لا بد من الرجوع الى المطولات لمعرفة أسماء الأباطرة وألقابهم قبل أن نحكم بالخطأ على الطبرى .

أما قول الطبرى ان جايوس هو ابن طيباريوس فحقيقته أن الامبراطور أغسطوس تزوج ليفيا Levi ، وكان لها من زوجها السابق أولاد يهمنا منهم طيباريوس Tiberius وأخوه دروسوس Drussus وتبنى أغسطس طيباريوس واختاره ولى عهده ، وفتح دروسوس جزءا من ألمانيا فلقب جرمانيكوس Germanicus فلما مات ورث ابنه عنه لقب جرمانيكوس ، واشتهر به أكثر من شهرة أبيه به .

وبموت دروسوس اشترط أغسطس على طيباريوس أن يتبنى جرمانيكوس الأصغر ، ويجعله ولى عهده . ففعل ذلك ، ثم مات جرمانيكوس الأصغر فى حياة طيباريوس ، فتبنى طيباريوس ابن جرمانيكوس الأصغر وهو كايوس .

واذا يكون كايوس المتبنى الثانى لطيباريوس ، وابن متبناه الأول ، وكانت عادة التبنى هذه شائعة فى المجتمع الرومانى » (١) .

٧

وهو الى هذا كله حافل بالنصوص الأدبية من شعر وخطب ورسائل ومحاورات ، قيلت فى مناسبات شتى ،

(١) من محاضرة للأستاذ محمد أحمد حسونة .

ولولم يدونها لفقد الدارسون ذخائر مما يعولون عليه فى الدراسات الأدبية واللغوية .

— ٨ —

فلا غرابة فى أن اعتمد عليه المؤرخون من بعده ، فاستقوا منه ، كابن مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١) وابن الأثير ، (المتوفى سنة ٦٣٠) وأبى الفدا (المتوفى سنة ٧٣٢) وابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨) .

قال ابن الأثير فى مقدمة كتابه : لقد جمعت فى كتابى هذا مالم يجتمع فى كتاب واحد ، فابتدأت بالتاريخ الكبير الذى صنفه الامام أبو جعفر الطبرى ، اذ هو الكتاب المعول عليه عند الكافة ، والرجوع اليه عند الاختلاف ، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه ، لم أخل بترجمة واحدة منها .

وقد ذكر هو فى أكثر الحوادث روايات ذوات عدد ، كل رواية منها مثل التى قبلها أو أقل منها ، وربما زاد الشىء اليسير أو نقصه ، فقصدت أتم الروايات فنقلتها ، وأضفت اليها من غيرها ما ليس فيها ، وأودعت كل شىء مكانه ، فجاء جميع ما فى تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقا واحدا على ما تراه [1] .

(١) مقدمة الكامل لابن الأثير صفحة ٢ .

وكثيرا ما نقل ابن خلدون من كتاب الطبرى ، وصرح باسمه ، وبخاصة فى أخبار الأنبياء (١) ، وتاريخ الفرس (٢) ، والحيرة (٣) . وملوك كندة (٤) ، وبنى عدنان (٥) .

ثم أكمله بعض المؤرخين ، فقد ذيل عليه عريب بن سعد القرطبى ابتداء من سنة ٢٩١ فى أخبار بنى العباس الى سنة ٣٢٠ ، وطبع التذييل مع تاريخ الطبرى . وذيل عليه محمد بن عبد الملك الهمدانى الى سنة ٤٨٧ وسمى تذييله (تكملة تاريخ الطبرى) ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة باريس .

وبهذا استحق الكتاب حرص القدماء على اقتنائه ، واستحق ثناءهم عليه ، فقد كان بخزانة كتب العزيز الفاطمى أكثر من عشرين نسخة احداها بخط المؤلف (٦) ، وقال القفطى : ان كتاب الطبرى فى التاريخ أجل كتاب فى بابه (٧) .

---

(١) العبر ٢/٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ .
(٢) العبر ٢/١٥٥ ـ ١٥٩ و ٢/٦٢ ـ ١٦٨ .
(٣) العبر ٢/٢٥٩ ـ ٢٦٣ .
(٤) العبر ٢/٢٧٣ .
(٥) العبر ٢/٢٩٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ .
(٦) الخطط للمقريزى ١/٤١٨ .
(٧) انباه الرواة ٣/٨٩ .

الفصل التاسع

الطبرى الفقيه

تدرج الفقه من طفولته فبلغ مرحلة الشباب فى القرن الثالث ، إذ كان الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة ، والشافعى ، وابن حنبل ، قد ذاعت مذاهبهم ، وكان لبعض الفقهاء آراء ومذاهب ، كالليث بن سعد والأوزاعى ، ولكن الذيوع لم يقيض لها ، كما قيض للمذاهب الأربعة .

وكانت الصبغة العامة للفقه فى القرنين الثانى والثالث أنه يعتمد على الاجتهاد وحرية الرأى .

ثم أعقبت هذه المرحلة مرحلة التقيد بمذهب من المذاهب فى القرنين الثالث والرابع ، فكان لكل مذهب فقهاؤه الذين يلتزمونه ، ولا يجرءون على الاجتهاد المستقل ، والافتاء بما يهديهم اليه البحث والنظر ، فهم يؤيدون المذهب الذى اعتنقوه ، ويجولون فى نطاقه ، وبهذا ينطبق عليهم أنهم مجتهدو مذهب لا أصحاب مذهب (١) .

عاش الطبرى أكثر حياته فى القرن الثالث ، فدرس المذاهب ، واعتنق مذهب الشافعى ردحا من حياته ، ثم

(١) ثم ظهرت طائفة من الفقهاء ، اعتمدوا على ما استنبطه سابقوهم من مجتهدى المذهب ، ورجحوا ما اختاروه من أوجه الخلاف ، وهؤلاء هم مجتهدو الفتيا .

استقل بمذهب خاص اختاره لنفسه ، واحتج له فى كتابه (لطيف القول فى أحكام شرائع الاسلام) واعتنقه بعض تلاميذه ، وروجوا له ، ونافحوا عنه ، كما سبق ، ثم انقطع أتباع مذهبه بعد القرن الرابع (١) .

لكن كتبه التى ألفها فى مذهبه فقدت ، فلا نعرف من آرائه الا ما ذكره فى كتابه (اختلاف الفقهاء) أو فى تفسيره للقرآن الكريم ، أو ما حكاه عنه الفقهاء والمؤرخون .

كتابه (اختلاف الفقهاء)

موضوعه

تناول فيه (٢) عدة أحكام فقهية ، كالمدَبّر ، وما يتعلق بتدبيره وتحريره ، والبيع ، وخيار البيع ، وفسخ البيع ، والربح الجائز ، وبيع الغائب المضمون بالصفة ، والبيع الى أجل مجهول ، والبيع حالا ، والرهن ، والكفيل فى بيع الغائب ، والسَّلَم فى الموزون والمكيل .

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون المالكى (من مقدمة اختلاف الفقهاء) .

(٢) نشره الدكتور فريدريك كرن الألمانى . مطبعة الموسوعات والترقى بمصر سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢ م .

وهو الذى سبق فى (مؤلفاته) باسم اختلاف علماء الأمصار .

وتحدث عن المزارعة والمساقاة ، وعن الغصب ، وحكم المغصوب اذا خلطه الغاصب بشىء من ماله لا يتميز ، وعن المسلم اذا أتلف خمر ذمى ، وعن الكفالة بالنفس ، وما تصح به الكفالة وتلزم ، وكفالة المرتد والحربى والمريض والعبد .. الخ

طريقته

ذكر فى كل مسألة آراء الفقهاء ، وهم : أبو حنيفة ، وأبو يوسف ، ومحمد ، والشافعى ، ومالك ، والأوزاعى ، والثورى ، وسعيد بن المسيب ، وابن أبى ليلى ، وابراهيم النخعى ، وأبو ثور ، والحسن البصرى ، وابن عباس ، وابن شبرمة ، وأنس بن مالك ، والضحاك بن مزاحم ، والعلاء ابن زياد ، وغيرهم .

وكثيرا ما كان يسجل أدلتهم مفصلة .

وفى بعض المواضع عقب على آرائهم برأيه ، مسبوقا بقوله : قال أبو جعفر ، أو بقوله : والصواب عندنا فى ذلك كذا .

وكان الغرض الأول من هذا الكتاب أن يتذكر به أقوال من يناظره ، ثم انتشر ، وطلب منه ، فقرأه على أصحابه .

وكان الطبرى يفضل كتاب الاختلاف ، وهو أول ما صنف من كتب ، وكان يقول كثيرا : لى كتابان لا يستغنى

عنهما فقيه : الاختلاف ، واللطيف . ولم يستقص فيه اختياره وآراءه ، لأنه جود ذلك فى كتابه اللطيف .

والذى يرجع الى هذا الكتاب يتبين منهجه فى تأليفه .

فقد ذكر فيه آراء الفقهاء ، كما ذكر فى كتاب التفسير آراء العلماء ، فدل بهذا على سعة علمه بالمذاهب الفقهية ، لكنه لم يعتمد على السند كما فعل فى كتاب التفسير والتاريخ ، بل كان يورد الرأى منسوبا الى صاحبه مباشرة ، كأن يقول : قال الأوزاعى ، أو قال مالك بن أنس ، أو قال أبو ثور ، ثم يذكر فى نهاية الرأى راويه ، كأن يقول : حدثنى بذلك العباس عن أبيه عنه ، أو حدثت بذلك عن معاوية ، عن أبى اسحاق عنه ، أو حدثنا بذلك الربيع ، على أنه لم ينهج هذا المنهج فيما نقله عن أبى حنيفة وأصحابه .

نماذج من (اختلاف الفقهاء)

١ — بيع الغائب المضمون بالصفة

١ — قال مالك والأوزاعى والثورى والشافعى وأبو حنيفة وأصحابه وأبو ثور : لا بأس بشراء الموصوف المضمون على بائعه فيما سنذكره فى كتابنا هذا فى أماكنه ان شاء الله وهو السَّلَم (١) .

(١) السلم : بيع الثمار بوصفها قبل نضجها لتسلم بعد النضج .

٢ — وقال سعيد بن المسَيَّب : لا يجوز السَّلَم فى شىء من الأشياء . أخبرنى بذلك يونس بن عبد الأعلى . قال : أخبرنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر ، عن الليث بن سعد ، عن يحيى بن سعيد ، قال : كان الناس يخالفون سعيد ابن المسيب فى عشر خصال مذ عرفوه . كان يقول : لا يسلف فى شىء من الأشياء ، ثم ذكر الخصال العشر ، وقد روى عن سعيد خلاف هذا القول .

٣ — وعلة مجوزى السَّلَم ما حدثنا به سفين بن وكيع قال : حدثنا ابن عُلَيَّة ، وحدثنا أبو كُرَيْب قال : حدثنا وكيع ، عن سفين ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن عبد الله بن كثير ، عن أبى المنهال ، عن ابن عباس ، قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وهم يسلفون فى الثمر العام والعامين والثلاثة .

فقال : من أسلم ثمرا فليسلم فى كيل معلوم الى أجل معلوم .

حدثنى أبو عيسى موسى بن عبد الرحمن المسروقى قال : حدثنا حسين بن علي الجعفى عن زائدة قال : حدثنا أبو اسحاق الشيبانى عن محمد بن أبى المجالد قال : أرسلنى أبو بُرْدة الأشعرى وعبد الله بن شداد الى عبد الله بن أبى أوفى فقالا : سله هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهده يسلفون فى الحنطة والشعير والزبيب ؟ فقال عبد الله : كنا نسلم الى نبط الشام فى الحنطة والشعير

والزبيب الى أجل معلوم ، فقلت : فمن كان له زرع ؟ قال : لم نسألهم عن ذلك . قال : ثم أرسلانى الى عبد الرحمن بن أبزى فسألته عن مثل ذلك ، فرد مثل رده . فقال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلفون فى كيل معلوم الى أجل معلوم ، ولم نكن نسألهم ألهم حرث أم لا ؟ .

٤ — وعلة من ذهب مذهب سعيد بن المسيب ، ما حدثنا به حُمَيْد بن مسعدة قال : حدثنا يزيد بن زُرَيْع عن أيوب عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله أنه قال : لا يحل بيع ما ليس عندك .

٥ — قال أبو جعفر : وهذا محتمل أن يكون نهيا عن بيع ما ليس عنده من الأعيان التى ليست مضمونة عليه ، وليس يستحيل أن ينهى عن بيع ما ليس عنده مما لم يكن مضمونا عليه ، ويجيز ما كان مضمونا عليه بصفة ، واذا كان ذلك جائزا كان المفسر مبينا عن المجمل [١] .

٢ — حكم المسلم يتلف خمر الذمى

١ — قال مالك : عليه قيمتها (حدثنى بذلك يونس ، عن ابن وهب ، عن مالك) .

٢ — وقال الشافعى : لا شيء على من أهلك خمرا لمسلم

---

(١) اختلاف الفقهاء ٦٨ .

أو نصراني ، وكذلك ان قتل له خنزيرا (حدثنى بذلك الربيع عن الشافعى) .

٣ — وقال أبو حنيفة وأصحابه : ان اغتصب النصرانى خمرا لنصرانى فاستهلكها ، حكم عليه بقيمتها ، فان أسلما لم يحكم عليه بشيء . وان أسلم أحدهما لم يحكم على المسلم ولا له بقيمة خمر . وان كان خنزيرا فأسلما أو أسلم احدهما ، فانه يقضى بينهما بالقيمة (رواية أبى يوسف عن أبى حنيفة) ولكن روى محمد عن زفر ، وعافية عن أبى حنيفة أنه كان يقول : ان أسلم المغصوب فطلب الخمر لم يقض له به ، وان أسلم الغاصب فعليه قيمة الخمر ، وان أسلما جميعا بطلت (وهو قول محمد) وقالوا : ان اغتصب مسلم خمرا لذمى كانت عليه قيمتها ، ولا يكون عليه خمر مثلها ، وان اغتصب مسلم خمرا لذمى فجعلها خلا ، كان له أخذها أو قيمة الخل ، وان اغتصبه جلد ميته فدبغه ثم استهلكه ، لم يكن عليه شيء (فى قول أبى حنيفة) .

والفرق عنده بين الخمر اذا صارت خلا والجلد اذا دبغ ، أن صاحب الخل لو أصاب خله كان له أخذه ، ولم يغرم شيئا ، وأن صاحب الجلد لو أصاب الجلد ، كان له أخذه ويغرم ما زاده الدبغ .

وقال أبو يوسف ومحمد : عليه ان استهلكه قيمة الجلد ، ويعطيه صاحب الجلد قيمة الدباغ .

٤ — وقال أبو ثور : ان اغتصب الذمى خمرا لذمى ،

ثم تقاضيا الينا لم نحكم الا بما نحكم به بين المسلمين ، ولا نحكم بثمن خمر ولا خنزير ولا حرام .

وان اغتصبها مسلم من مسلم واستهلكها ، فلا شيء عليه .

وان اغتصبه جلد ميته مما يؤكل لحمه فدبغه فهو للمغصوب منه ، وان استهلكه كانت عليه قيمته ، وذلك أنه لما دبغه حل بيعه ، وكان بالدباغ متطوعا لا شيء عليه ، فلما استهلكه بعد أن حل كان له قيمة ، والخمر لا قيمة لها ، فلا يحل بيعها (١) .

٣ — حكم كفالة الحربي المستأمن

اذا دخل الحربى دار الاسلام بأمان تاجرا ، فكفل فيها بمال أو نفس ، أو كفل له فيها مسلم أو ذمى بمال أو نفس ، فذلك كله جائز فى قول الجميع من أهل الحجاز والعراق .

فان لحق الحربى بدار الحرب وقد كفل بالمال أو النفس ، ثم خرج الى دار السلام ، كان مأخوذا بذلك كله ، وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه .

وان سبى بعدما رجع الى دار الحرب أو أسر لم يتبع بشيء من ذلك ما دام رقيقا ، لأنه لا مال له فى حال العبودية يجوز حكمه فيه ، وأنه ليس للحاكم فى الكفالة بالنفس

(١) اختلاف الفقهاء ١٦٠ .

حبسه بها ، اذا كان فى حبسه على مولاه مضرة بسبب حق لزمه فى حال ما كان حرا ، ولكنه ان عتق يوما من الدهر كان للمكفول له اتباعه بالكفالة التى كان كفل بها قبل الأسر والسباء ، بنفس كان ذلك أو بمال .

وقال أبو حنيفة وأصحابه :

ان سبى أو أسر بطلت كفالته فيما له وفيما عليه ، فى النفس وفى المال (١) .

الفصل العاشر

ألوان من آرائه

الطبرى صاحب عقل خصيب ، وذو شغف بالاطلاع والبحث والدرس ، وذو ألوان شتى من الثقافة ، فهو محدث ، ومفسر ، ومؤرخ ، وفقيه ، ونحوى ، ولغوى ، ومتأدب ، ومتطبب .

وله فى كل فرع من هذه الثقافة آراء ، بعضها عن استقلال مطلق ، وبعضها عن موازنة ومقارنة وترجيح .

وقد سبق ما يتصل منها بالتاريخ والتفسير فى تحليل كتابيه . وهذا فى اجمال طرف من آرائه الفقهية والمتصلة بالفقه والعقيدة .

١ — سلفيته

ولعلنى لا أعدو الصواب اذا ما ذهبت الى أنه كان سلفى العقيدة والتفكير فى كل آرائه .

واذا كان بعض خصومه قد اتهموه بغير ذلك ، فانهم لم يستطيعوا أن يقيموا دليلا على صدق دعواهم .

وقد وصفه تلميذه عبد العزيز بن محمد الطبرى بما يؤيد نزعته السلفية ، ويؤكد مخالفته للمعتزلة فى عدة مسائل .

فهو يذهب فى جل مذهبه الى ما عليه الجماعة من السلف ، وأهل العلم المتمسكين بالسنن ، فيمضى على مناهجهم لا يعبأ بلومة لائم .

وقد خالف المعتزلة فى جميع ما خالفوا فيه الجماعة .

خالفهم فى قولهم بقدرة العباد .

وخالفهم فى قولهم بخلق القرآن .

وخالفهم فى قولهم بابطال رؤية الله يوم القيامة .

وناقضهم فيما ذهبوا اليه من تخليد أهل الكبائر فى النار .

وغاير مذهبهم فى ابطال شفاعة رسول الله .

ولم يقرهم على أن استطاعة العبد سابقة على فعله .

وكان يعتقد أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه .

وأن جميع ما فى العالم لا يكون الا بمشيئة الله [1] .

وهذا مثال مما خالف فيه المعتزلة ، فقد ذهبوا الى أن الناس لن يروا خالقهم سبحانه وتعالى يوم القيامة ، لأن رؤيته تحده وهو غير محدود . وذهب السلف الى امكان هذه الرؤية ، ومنهم الطبرى ، ففى قوله تعالى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٨١ وتفسير الطبرى فى مواضع كثيرة منها ٦/١٩٣ ، ١٥/٩٧ ، ٣٨/١٠٤ ، ٧/٢٠٠ .

ذكر الآراء المختلفة فى تفسير الآية ، وهى قول بعضهم : لا تحيط به الأبصار وهو يحيط بها ، وقول آخرين : لا تراه الأبصار وهو يراها ، وقول غيرهم : لا تدركه أبصار الخلائق فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فانها تدركه ، وأصحاب هذه المقالة على أن الادراك فى الآية يراد به الرؤية . وقول فريق رابع : لن يدرك الله بصرٌ أحد فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله يحدث لأوليائه يوم القيامة حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس فيرونه بها .

ثم علق على هذه الآراء بقوله : والصواب ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله أنه قال : سترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون القمر ليلة البدر ، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب .

فالمؤمنون يرونه ، والكافرون يومئذ عنه محجوبون ، كما قال جل ثناؤه « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

فأما ما اعتل به منكرو الرؤية بالأبصار من أنها لا ترى الا ما باينها ، وكان بينها وبينه فضاء وفرجة ، وهذا غير جائز لأن فيه اثبات حد لله ونهاية ، فانه مردود عليهم ، لأنهم لا يعلمون موصوفا بالتدبير سوى الخالق الا مُماسّاً لهم أو مباينا ، والله سبحانه وتعالى لا مماس لهم ولا مباين ، وهو موصوف بالتدبير والفعل ، فلماذا ينكرون أن تكون الأبصار لا ترى الا ما باينها ، وكانت بينها وبينه فرجة ، وقد تراه وهو غير مباين لها ولا فرجة بينها وبينه ولا فضاء .

فان احتجوا بأن الأبصار لا تدرك الا الألوان ، قيل لهم ماذا يمنع من أن تدرك غير ذى لون ؟

وختم كلامه بقوله : ان منكرى الرؤية لا يرجعون من قولهم الا الى ما لبّس عليهم الشيطان ، مما يسهل على أهل الحق البيان عن فساده ، وانهم لا يرجعون فى قولهم الى آية من التنزيل محكمة ، ولا رواية عن رسول الله صحيحة ولا سقيمة ، فهم فى الظلمات يخبطون ، وفى العمياء يترددون ، نعوذ بالله من الحيرة والضلالة [1] .

ويظهر أنه كان يتشدد فى نزوعه السلفى ، حتى لقد ذكر تلاميذه أنه كفر المخالفين لآراء السلف ، وكفر الذين اجترأوا على تكفير الصحابة من الخوارج والرافضة .

ولقد كان المتوقع من الطبرى وهو العالم الثقة المتزن ألا يتعصب لمذهب السلف فى كل شيء ، وألا يقضى بالكفر على من خالفوه ، لأن التكفير تهمة بشعة لا يصح أن تلصق بمؤمن ، ومن آسف أن بعض المسلمين استسهلوا هذه التهمة ، وكانوا يصوبونها الى مخالفيهم فى المذهب السياسى أو الدينى .

سأله أبو بكر بن كامل : من سبقك الى تكفير أهل الأهواء ؟ فقال الطبرى : سبقنى امامان عادلان ، عبد الرحمن ابن مهدى ، ويحيى بن سعيد القطان .

(١) التفسير ٧/١٩٩ ــ ٢٠٣ .

كان الطبرى يكفر المخالفين الخارجين على المذاهب ، لأن أدلة العقول تندفع ، فكر القائلين بالقدر ، وكفر الروافض والخوارج الذين حكموا بالكفر على أصحاب رسول الله ، وكان لا يقبل أخبارهم ولا شهاداتهم .

وقد ذكر ذلك فى كتابه فى الشهادات ، وفى الرسالة ، وفى أول ذيل المذيل . وكان لا يورث من هؤلاء الذين حكم بكفرهم ، ذكر ذلك فى مسند أسامة بن زيد عند كلامه فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يورث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم ، ولا يتوارث أهل ملتين شتى(١).

٢ — بغضه للبدع

وكان يبغض الابتداع فى الدين .

قال أبو بكر بن كامل : حضرت أبا جعفر حين حضرته الوفاة ، فسألته أن يجعل كل من عاداه فى حل ، وأن يصفح عمن تجنوا عليه ، وكنت أقصد أبا الحسن بن الحسين الصواف ، اذ كنت قرأت عليه القرآن . فقال أبو جعفر : كل من عادانى وتكلم عنى فى حل ، الا رجلا رمانى ببدعة .

وكان الصواف من أصحاب أبى جعفر ، وكانت فيه سلامة ، ولم يكن من أصحاب الضبط والتدقيق ، فلما أملى أبو جعفر « ذيل المذيل » ذكر أبا حنيفة وأطراه ، ووصفه

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٣ .

بالعلم والورع ، فاغتاظ الصواف ، لأن أبا جعفر مـدح أبا حنيفة ، وأهمله ، فجعل يتهجم على أبى جعفر ، ويبسط لسانه فيه .

ويقول ابن كامل : ان الطبرى كان اذا عرف من انسان بدعة أبعده واطّرحه [1] .

٣ — هل كان جبريًّا ؟

قال عبد العزيز بن محمد الطبرى : ان أبا جعفر كان يزعم أن أفعال العباد خَلْقٌ الله ، وأن الله منَّ على أهل الايمان بالاستطاعة التى وفقهم بها لطاعته ، وأنه ختم على قلوب الكفار مجازاة لهم على كفرهم .

وعلق ياقوت على هذا بأنه ردىء جدا ، لأنه اذا كان ختم قبل الكفر فقد ظلم ، وان كان ختم بعد الكفر فقد ختم على مختوم ، وهذا لم يقل به أحد من أهل السنة والجماعة ، انما هو من أقوال الروافض والمعتزلة [2] .

لكن هذا الوصف محتاج الى مناقشة ، لأن الذى يظهر من تفسير الطبرى ومناقشاته للمعتزلة أنه لا يدين بالجبر .

فاذا ما رجعنا الى ما قاله الطبرى فى تفسير بعض الآيات المتعلقة بالايمان والكفر ، والهدى والضلال ، والفجور

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٤ .
(٢) معجم الأدباء ١٨/٨٢ .

والتقوى ، لنتعرف مذهبه ، لم نستطع أن نقضى بأنه جبرى ، ولم نستطع أيضا ان نقضى بأنه معتزلى ، لأن كلامه لا يشف عن مذهب واضح ، وان كان يدور على أساس ثابت هو أن علم الله سابق لأفعال العباد ، وبيده التوفيق والخذلان ، والهدى والضلال .

١ — قال فى تفسير قوله تعالى :

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » .

بين لها ما ينبغى أن تأتى أو تذر من خير أو شر أو طاعة أو معصية . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ..

وقال آخرون : بل المعنى أن الله جعل فيها ذلك من فجور ومن تقوى . وعقب على هذا برواية عن عمران بن حصين فى قوله لأبى الأسود الديلى : أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشىء قضى عليهم من قدر سابق ، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم عليه الصلاة والسلام . وأكدت به عليهم الحجة ؟

قال الديلى : بل شىء قضى عليهم . قال عمران : فهل يكون ذلك ظلما ؟

قال الديلى : ففزعت منه فزعا شديدا ، وقلت ليس شىء الا وهو خلقه وملك يده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال عمران : سددك الله ، انما سألتك لأخبر عقلك . ان رجلا من مزينة أو جهينة أتى النبى فقال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشىء قضى عليهم

ومضى عليهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟

قال : فى شيء قد قضى عليهم .

قال ففيم نعمل ؟ قال : من كان الله خلقه لاحدى المنزلتين يهيئه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » (١) .

٢ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

« ان الذين كفروا وظلموا ، لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم طريقا ، الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا ، وكان ذلك على الله يسيرا » .

ان الذين جحدوا رسالة محمد ، وكفروا بالله بجحود ذلك ، وظلموا بمقامهم على الكفر ، لم يكن الله ليعفو عنهم . ولا يوفقهم الى طريق من الطرق التى ينالون بها ثواب الله ، ولكنهم يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم ، وانما كنى بالطريق عن الدين ، ومعنى الكلام لم يكن الله ليوفقهم الى الاسلام ، ولكنه يخذلهم عنه الى طريق جهنم وهو الكفر (٢) .

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

« ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب » ان الله يضل

(١) التفسير ٣٠/١٣٤ .
(٢) التفسير ٦/٢٣ .

منكم من يشاء فيخذله عن تصديقى ، والايمان بما جئته به من عند ربى ، ويهدى اليه من أناب ، فرجع الى التوبة من كفره ، فيوفقه لاتباعى وتصديقى على ما جئته به من عند ربه . والضلال والهداية بيد الله ، يوفق من يشاء منكم للايمان ، ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن [1] .

٤ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » .

وما أرسلنا الى أمة رسولا الا بلسانها ولغتها ، ليفهمهم ما أرسله الله به اليهم من أمره ونهيه ، ليثبت حجة الله عليهم ، ثم التوفيق والخذلان بيد الله ، فيخذل عن قبول ما أتاه به رسوله من عنده من شاء منهم ، ويوفق لقبوله من شاء ، ولذلك رفع فيضل ، لأنه أريد به الابتداء لا العطف على ما قبله ، كما قيل : « لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء » وهو العزيز الذى لا يمتنع مما أراده من ضلال أو هداية من أراد به ذلك ، والحكيم فى توفيقه للايمان من وفقه له ، وهدايته له من هداه اليه ، وفى اضلاله من أضل عنه ، وفى غير ذلك من تدبيره [2] .

٥ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

(١) التفسير ١٣/٩٧ .
(٢) التفسير ١٣/١٢١ .

« وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » .

وعلى الله بيان طريق الحق لكم ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها .. ولو شاء للطف بكم جميعا بتوفيقه ، فكنتم تهتدون وتلزمون قصد السبيل ، ولا تجورون عنه ، فتتفرقون فى سبيل جائرة عن الحق [1] .

٦ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

« قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين » .

قالوا ربنا غلب علينا ما سبق لنا فى علمك وخط لنا فى أم الكتاب [2] .

٧ — وقال فى تفسير قوله تعالى :

« أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار » ؟

أفمن وجبت عليه كلمة العذاب فى سابق علم ربك يا محمد بكفره به أفأنت تنقذه ؟

أى أفأنت تهدى يا محمد من قد سبق له فى علم الله أنه من أهل النار الى الايمان فتنقذه من النار بالايمان ؟ لست على ذلك بقادر [3] .

٨ — وقال فى تفسير قوله تعالى « فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، الا من هو صال الجحيم » .

---

(١) التفسير ١٤/٥٩ . (٢) التفسير ١٨/٤٤ .

(٣) التفسير ٢٣/١٣٢ .

فانكم أيها المشركون بالله ، وما تعبدون من الآلهة والأوثان ما أنتم بمضلين أحدا ، الا أحدا سبق فى علمى أنه من أهل النار (١) .

٩ – وقال فى تفسير قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعين الا ابليس استكبر وكان من الكافرين » لم يسجد ابليس تعظما وتكبرا ، وكان بتكبره على ربه ومعصيته أمره ممن كفر فى علم الله السابق ، فجحد ربوبيته ، وأنكر عليه من الاذعان والطاعة (٢) .

٤ – هل كان متشيعا ؟

نسب اليه بعض المؤرخين ميلا الى التشيع ، فقال صاحب لسان الميزان : كان فيه تشيع يسير ، وموالاة لا تضر (٣) .

وقال ياقوت : انه كان يتهم بالتشيع ، لذلك قيل انه لما مات دفن ليلا ، خوفا من العامة (٤) .

وبالغ أحمد بن على السليمانى الحافظ ، فأقذع فى قوله : كان الطبرى يضع للروافض (٥) .

---

(١) التفسير ٢٣/٦٩ .
(٢) التفسير ٢٣/١١٨ .
(٣) لسان الميزان ٥/١٠٠ .
(٤) معجم الأدباء ١٨/٤٠ .
(٥) لسان الميزان ٥/١٠٠ .

وهذه التهمة يعوزها التدليل ؛ لأنها وهم باطل ، ولعل مردها الى عدة أسباب :

١ — أولها أنه ألف كتابا فى فضائل على بن أبى طالب ، ورد على بعض علماء بغداد الذين أنكروا ما روى حول غديرخم (١) كما سبق .

٢ — ثانيها أن بعضهم خلط بين اسمه ، واسم عالم آخر يماثله ، ولا يخالفه الا فى اسم الجد ، هو أبو جعفر محمد ابن جرير بن رستم الطبرى ، وقد كان هذا رافضيا ، وله مؤلفات منها كتاب الرواة عن أهل البيت (٢) .

٣ — وأغلب الظن أنهم ألصقوا به هذه التهمة لأنهم نسبوا اليه خطأ كتاب « بشارة المصطفى » وهو يتناول منزلة التشيع ، ودرجات الشيعة ، وكرامات الأولياء .

والصواب أنه لعالم شيعى يشبهه فى الاسم ، لكنه متأخر عنه فى الزمن ، هو أبو جعفر محمد بن على بن مسلم الطبرى الآملى ، من علماء القرن السادس (٣) .

٤ — وربما كان لهذه التهمة سبب رابع هو أن الطبرى

---

(١) موضع بين مكة والمدينة يزعم الشيعة أن النبى عهد فيه الى على بن أبى طالب من بعده ، ودعا الله أن ينصر من ينصره ، ويخذل من يخذله ، وهم يتخذون ذلك اليوم عيدا .

(٢) لسان الميزان ٥/١٠٣ .

(٣) الذريعة الى مصنفات الشيعة ٣/١١٧ عن مقدمة تاريخ الطبرى ص ٢٠ للأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم .

كان على صلة بأحمد بن عيسى العلوى ، وهو من بلده ، وقد كتب له العلوى هذا يقول :

ألا ان اخــــوان الثقات قليـــــل
وهل لى الى ذاك القليل ســـبيل ؟
سل الناس تعرف غثهم من سمينهم
فكل عليـــه شـــاهد ودليـــــل

فأجابه أبو جعفر بقوله :

يسىء أميرى الظن فى جهد جاهـــد
فهل لى بحسن الظن منه ســـبيل ؟
تأمـــل أمـــيرى ما ظننت وقلتــــه
فان جميـــل الظن منك جميـــل (١)

فهم يجدون فى رد الطبرى على الأمير العلوى اخلاصا له ، ورغبة فى أن يحسن به ظنه ، ويبنون على هذا اتهامه بالتشيع .

٥ — وأرجح أن التشيع فرية أراد بعضهم أن يلصقها بالطبرى ، أو التبس الأمر على بعضهم فعزاها اليه .

ذلك أنه ألف كتابا فى فضائل على ، ولكنه ألف كتابا آخر فى فضائل أبى بكر وعمر ، اذ سمع جماعة من طبرستان يبسطون ألسنتهم فى الصحابة ، ويسبون أبا بكر وعمر ، فألف هذا الكتاب ، ليشيد بفضل الخليفتين ، ويرد على

---

(١) تاريخ بغداد ١٦٦/٢ ومعجم الأدباء ٤٤/١٨ .

دعاوى المتهجمين عليهما ، وقد وصفهما بأنهما اماما هدى ، وأنكر على من لا يصفهما بذلك .

ثم ألف كتابا فى فضائل العباس بن عبد المطلب .

فلو أنه كان متشيعا — كما زعموا — ما ألف هذين الكتابين ، وما أشاد بفضائل ثلاثة من كبار الصحابة جرحهم الشيعة .

ولو أنه كان رافضيا — كما زعموا — ما قضى بكفر الخوارج والشيعة الذين كفروا أصحاب رسول الله ، حتى انه كان لا يقبل أخبارهم ، ولا شهادتهم ، ولا يجيز التوارث بينهم وبين المسلمين .

لهذا كان ابن حجر محقا فى قوله ان اتهام السليمانى لأبى جعفر رجم بالظن الكاذب ، لأن الطبرى كان من كبار أئمة الاسلام المعتمدين ، ولسنا ندعى عصمته من الخطأ ، ولكن لا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى ، وينبغى أن يتأنى العالم فيما يصف به عالما آخر ، ولا سيما امام كبير كالطبرى (١) .

وكان ياقوت على الصواب فى تعليقه على قول أبى بكر ابن محمد العباس الخوارزمى — وهو من آمل وكان يزعم أن أبا جعفر خاله — :

بآمل مولدى وبنــو جرير
فأخوالى ويحكى المرء خاله

---

(١) لسان الميزان ٥/١٠٠ .

فها أنـا رافضي عن تراث

وغيري رافضي عن كلاله

قال ياقوت : كذب أبو بكر ، فلم يكن أبو جعفر رحمه الله رافضيا ، وانما حسدته الحنابلة ، فرموه بذلك ، فاغتنمها الخوارزمي ، وكان سبّابا رافضياً مجاهراً بذلك متبجحاً به(1) .

٥ — رأيه في قضاء المرأة

كان أبو حنيفة يجيز قضاء المرأة فيما تصح شهادتها فيه ، ولا يجيزه فيما لا تصح شهادتهما فيه ، أي تصح في كل شيء الا في الحدود والقصاص . وقال مالك والشافعي وابن حنبل لا يجوز أن تتولى المرأة القضاء .

ثم جاء الطبري فقال ان قضاء المرأة في جميع الأحكام جائز (2) .

ولعل الذين يدعون اليوم الى تولية المرأة القضاء يجدون في رأي الطبري ما يعزز دعوتهم .

٦ — الصلاة في جوف الكعبة

في رأي الطبري أن صلاة الفرض وصلاة النفل لا تجوز في جوف الكعبة (3) .

---

(1) معجم البلدان (آمل) . (2) الأحكام السلطانية ٦١ .

(3) الطبقات الوسطى للسبكي والعقد المذهب لابن الملقن (عن مقدمة كتاب اختلاف الفقهاء صفحة ١٦) .

٧ — مسح الرجلين وغسلهما

ذهب الى أن المراد مسح الرجلين فى الوضوء ، معتمدا على ترجيح قراءة الأرجل بالكسر عطفا على الرءوس فى قوله تعالى : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين » ، ومعتمدا على أن المسح بالماء غسل فى الحقيقة ، فمن مسح رجليه فقد غسلهما ، ومن غسلهما فقد مسحهما .

وقد سبق تفصيل ذلك فى منهجه فى تفسير القرآن الكريم .

٨ — رأيه فى توارث أهل الكتاب

كان لا يورث نصرانيا يعقوبيا من نصرانى ملكى ، ولا يورث ملكيا من نسطورى ، ولا يورث يهوديا شمعنيا من سامرى ، ولا يهوديا عنانيا من شمعنى . وكان الأوزاعى من قبله على هذا الرأى القاضى بأن اختلاف المذهب يمنع التوارث [1]

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٣ .

٩ — عداء الحنابلة له

كان الحنابلة فى عصر الطبرى قد كثر فى بغداد عددهم ، وعظم نفوذهم ، واشتدت حملاتهم على مخالفيهم .

وكان الطبري كما تبين من أخلاقه جريئا فى الحق لا يمارى ، وحر الرأى لا يقلد ولا يحاكى ، فقد كان شافعى المذهب فى أول حياته ، وأفتى به فى بغداد عشر سنين ، وتلقاه عنه ابن بشار الأحول أستاذ أبى العباس بن سريج [1] .

ثم انفرد بمذهب مستقل ، واختيارات خاصة به ، جودها واحتج لها [2] .

فلما ألف كتابه (اختلاف الفقهاء) أغفل ذكر أحمد ابن حنبل، على حين أنه ذكر كثيرا من الفقهاء مثل أبى حنيفة : والشافعى ، ومالك ، والأوزاعى ، وغيرهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

وقيل انه سئل فى ذلك فقال : لم يكن ابن حنبل فقيها ، انما كان محدثا .

واذاً فقد تهيأت الأسباب لأن يتحرش به الحنابلة ، فبدأ بعضهم بالتعصب عليه كالجصّاص والبياضى وجعفر ابن عرفة .

ثم قصده جماعة منهم وهو فى المسجد يوم الجمعة ،

---

(١) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

(٢) طبقات المفسرين ٣٠ والأنساب ٣٦٧ والفهرست ٢٣٤.

وسألوه سؤالين ، أولهما عن امامهم أحمد بن حنبل ، وثانيهما عن حديث الجلوس على العرش [1] .

فقال الطبرى : أما أحمد بن حنبل فلا يُعد خلافه .

قالوا : قد ذكره العلماء فى الاختلاف .

قال : ما رأيته رُوى عنه ، ولا رأيت له أصحابا يعول عليهم .

وأما حديث الجلوس على العرش فمحال ، وأنشد :

سبحان من ليس له أنيس

ولا له فى عرشه جليس

فلما سمعوا ذلك غضبوا ، وأهاجوا عليه العامة ، واتهموه بأنه رافضى ، ورموه بمحابرهم ، وقيل إنها كانت ألوفا .

قام الطبرى وقصد داره ، فلم يكتف خصومه بما اقترفوا ، بل جعلوا يرمون الدار بالحجارة ، حتى صارت على بابها كالتل .

وحينئذ اضطر رئيس الشرطة الى أن يركب فى آلاف من جنوده ، ليمنعوا الطبرى من العامة ، ووقف على بابه يوما الى الليل ، وأمر برفع الأحجار .

ويقال ان الطبرى كان قد كتب على بابه بيت الشعر السابق ، فأمر رئيس الشرطة بمحوه .

---

(١) كان الحنابلة يذهبون فى معنى قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » الى ان الله يقعد على العرش ويقعد النبى معه ، جزاء له على تهجده.

ويقال أيضا ان بعض أصحاب ابن حنبل كتب فى مكان بيت الشعر هذه الأبيات :

لأحمـــد منزل لا شــــك عــال
اذا وافى الى الرحمـــــن وافـدْ
فيدنيه ويقعـــــده كـــريما
على رغم لهم فى أنف حاســـد
عــلى عــرش يغلّفـــه بطيب
عــلى الأكبــاد من باغ وعـــاند
له هــذا المقـــام الفــرد حقـــا
كذاك رواه ليث عن مجـــاهد (١)

على أن الطبرى اذ أغفل ابن حنبل فى الفقهاء لم يفعل الا ما فعله بعض سابقيه ولاحقيه (٢) .

---

(١) تنتهى رواية رأى الجلوس الى مجاهد (تفسير الطبرى ١٥/٩٧) .

(٢) لم يذكره الطحاوى فى اختلاف الفقهاء ، ولا الدبوسى فى تأسيس النظر ، ولا النســـفي فى منظومتـــه ، ولا العلاء الســــمرقندى فى مختلف الرواية ، ولا الفــراهى الحنفى فى منظومته ولاغيرهم من الحنفية .

كذلك لم يذكره أبو محمد عبد الله بن ابراهيم الأصـــيلى المالكى الأندلسى فى كتابه الدلائل فى أمهات المسائل ، ولا محمد ابن عبد الرحمن السمرقندى السخاوى فى كتابه عمدة الطالب لمعرفة المذاهب ، ولا الغزالى فى كتابه الوجيز ، ولا النسفى فى كتابه الوافى، ولا ابن عبد البر المالكى فى كتابه الانتقاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء أبى حنيفة ومالك والشافعى . (مقدمة كتـــاب اختلاف الفقهاء صفحة ١٤) .

بعد هذه الفتنة خلا الطبرى فى داره ، وقيل انه ألف كتابه المشهور فى الاعتذار اليهم ، وذكر فيه مذهبه واعتقاده ، وجرح من ظنوا فيه غير ذلك ، وأشاد بأحمد بن حنبل ، وذكر مذهبه ، وصوب اعتقاده ، وقرأ الكتاب على الحنابلة ، ولم يزل يذكر ابن حنبل الى أن مات . ثم انه لم يخرج كتابه (اختلاف الفقهاء) فلما مات وجدوه مدفونا فى التراب ، فأخرجوا الكتاب ونسخوه (١) .

ويذكر بعض المؤرخين ان الحنابلة كانوا يحولون بين الناس والسماع عليه ، فكان لا يخرج ولا يدخل عليه أحد (٢) .

ويرد السبكى على هذا بأن الحنابلة لم تكن شوكتهم تمكنهم من ذلك ، وبأن مكانة الطبرى كانت أعظم من أن يقدروا على منعه من الظهور ، ويعزو اعتكافه الى تباعده عن الأراذل المتعرضين له ، حتى أنه لم يكن يأذن فى لقائه والاجتماع به الا لمن يختارهم ، ويعرف أنهم على السنة ، ويقول انه كان لا يخشى فى الله لومة لائم ، مع عظم ما يلحق به من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد (٣) .

لكن رد السبكى غير مقنع ، لأن الحنابلة قد آذوه فى

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٨ .

(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٣ وتاريخ بغداد ٢/١٦٤ وطبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

(٣) طبقات الشافعية ٢/١٣٧ .

المسجد ، وتعقبوه الى داره ، ولولا صاحب الشرطة لتمادوا فى عدوانهم .

والذين يستطيعون أن يفعلوا ذلك ، لا يصعب عليهم أن يحولوا بين الطبرى والراغبين فى السماع منه .

على أن كثيرا من المريدين الراغبين فى أن يجلسوا الى الطبرى ليستمعوا له لابد أنهم توقوا عدوان الحنابلة عليهم ، فكفوا عن التردد عليه .

ولست أستبعد ما ذكره ياقوت من أن الطبرى شرح مذهبه ، وأزال ما كان الحنابلة يظنونه فيه أو يتهمونه به ، ووضح رأيه فى الامام أحمد بن حنبل ، فصالحوه وكفوا عنه ، وحينئذ استأنف طلابه التردد على مجالسه .

على أننى أرجع الى ما قاله الطبرى فى تفسير الآية الكريمة « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » فأجده يذكر رأى الحنابلة فى المرتبة الثانية ، بغير أن يسميهم ، ويرجح الرأى الأول ، ثم يعود الى الرأى الثانى ، فيعلق عليه بأنه ليس محالا . ولا أجد بيت الشعر :

سبحان من ليس له أنيس
ولا له فى عرشه جليس

فهل يرجع هذا الى أنه بعد معاداة الحنابلة له ، رجع عن رأيه ، وذهب الى أن رأيهم غير مستحيل ليترضاهم ؟

واذا كان لم يعرف فى حياته أنه عدل عن رأى من آرائه

ليجارى أصحاب رأى آخر ، فهل لى أن أفترض أن ما زيد على تفسيره للآية مدخول عليه ؟

جاء فى تفسير الآية الكريمة :

اختلف أهل التأويل فى معنى المقام المحمود ، فقال أكثر أهل العلم ذلك المقام هو الشفاعة يوم القيامة ، ثم ذكر أصحاب هذا الرأى .

وقال آخرون : بل ذلك المقام أن يقعد الله النبى معه على عرشه ، ثم ذكر من قالوا ذلك .

وعلق بأنه يفضل الرأى الأول ، وذكر أحاديث عن النبى تؤيده ، وآراء عن الصحابة والتابعين .

ثم عاد فتردد اذ قال : هذا هو الصحيح من القول فى تأويل المقام المحمود ، لكن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمدا صلى الله عليه وسلم على عرشه قول غير مدفوع صحته لا من جهة خبر ولا نظر ، لأنه لا خبر عن رسول الله ، ولا أحد من الصحابة أو التابعين باحالة ذلك ، ولأن النظر لا ينتهى الى خروج النبى عن بشريته ، أو مشابهته لله (١) .

---

(١) التفسير ١٥/٩٧ .

الخاتمة

أما بعد :

فقد تناولت هذه الدراسة البيئات العلمية التى استقى الطبرى ثقافته منها ، فى فارس ، والعراق ، والشام ، ومصر ، سواء أكان قد درس على علمائها مباشرة أم انتفع بما خلفوا من كتب ورسائل .

ثم تناولت حياته بالقدر الذى أسعفت به المصادر ، ووصفا موجزا لبيئته التى ربى فيها ، ورحلاته بين ينابيع الثقافة ، وذكرا لبعض أساتذته .

وعرضت بعد ذلك الى معالم شخصيته ، وصفاته الجسدية ، وخصائصه النفسية ، وسماته الخلقية ، ومزاياه العقلية ، وأمثلة من حياته ومعاملاته تكشف عن شخصيته العامة ، أعقبها تركيز لألوان ثقافته من دينية وأدبية وتاريخ ، وعلوم أخرى لم يبرع فيها براعته فى هذه ، كالفلسفة والطب والحساب .

واذا كان الطبرى عالما وقف على العلم والتدريس حياته ، تحلق الطلاب حوله ، وكثروا ، عرضت الدراسة لتلاميذه ومدى محاكاتهم لأستاذهم ، وأشارت الى بعض مؤلفاتهم وآثارهم ومشابهتهم لأستاذهم .

ثم تناول البحث مؤلفات الطبرى ، فذكرها كلها ، وأشار الى الباقى منها والمفقود ، واختص بالتحليل المفصل ثلاثة من هذه الكتب وثيقة الصلة بثقافته وشهرته ، وهى كتابه فى التفسير ، وكتابة فى التاريخ ، وكتاب من كتبه فى الفقه .

أما كتابه فى التفسير فقد عرضت الدراسة للمناهج التفسيرية قبله ، والوجوه التى شابهها ، أو خالفها فيها ، ثم تناولت موضوعات كتابه ، والمصادر التى نهل منها ، والمنهج الذى سلكه ، والسمات العامة لهذا المنهج ، وما للطبرى وما عليه ، ثم عرضت لقيمته وتأثيره فى عصره وفيما بعده .

وأما كتابه فى التاريخ فقد مهدت الدراسة له بكلمة عن تطور المنهج التاريخى قبل الطبرى ، ثم ذكرت الموضوعات التى تناولها كتابه ، وأهم الينابيع التى استقى منها معلوماته ، والمنهج الذى سار عليه ، وختمت هذا بكلمة عما يؤخذ عليه ، وبكلمة عن قيمته وصداه فيمن جاءوا بعده من المؤرخين .

وأما ناحيته الفقهية فقد بينتها الدراسة بعامة ، ثم تناولت بالتحليل كتابه (اختلاف الفقهاء) فذكرت موضوعه ، وطريقته ، وبعض نماذج منه ، وأنه فى هذا الكتاب مسجل لآراء الفقهاء فى عدة مسائل شرعية اختلفوا فيها .

ثم أتبعت هذا بذكر ألوان من آرائه الفقهية أو المتصلة بالفقه والعقيدة ، ونفت عنه بعض تهم وجهت اليه وهو منها برىء ، وبينت البواعث التى دفعت الحنابلة الى معاداته .

. ولم أرد فى هذه الخاتمة أن أضرب الأمثال أو أتوسع ، لأن هذا ان فصل بعضه كان تكريرا ، وان اقتضب شوه الأفكار وأخل بها .

ولعله قد اتضح من دراسة الطبرى أنه عالم فى الطليعة من علماء عصره ، عالم متعدد الثقافات ، حجة فى بعضها ، عظيم الآثار فى كثير من معاصريه ، وكثير من لاحقيه .

ولعله قد اتضح كذلك أنه كان الى علمه أستاذا يأخذ نفسه بالفضائل التى يجب أن يتصف بها العالم الذى وهب العلم حياته ، ووقف علمه وعمره على التأليف ، وعلى التعليم ، وكان فى نظر تلاميذه مثلهم العالى الذى يحتذونه ، ويحاولون أن يرتفعوا الى ما يقرب من مكانه الرفيع .

المـــراجع

١ ـ الاتقان فى علوم القرآن ـ السيوطى

٢ ـ الأحكام السلطانية ـ أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى المـــاوردى مطبعـــة الوطن بمصر سنة ١٢٩٨ هـ ·

٣ ـ اختلاف الفقهـــاء ـ الطبرى · تحقيق الدكتور فريدريك كرن الألمانى · مطبعـــة الموســـوعات والترقى بمصر سنة ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢ م ·

٤ ـ أدب مصر الاسلامية ـ الدكتور محمد كامل حسين ·

٥ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة · ابن الأثير · المطبعـــة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٠ ·

٦ ـ انباه الرواة ـ القفطى ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ·

٧ ـ الأنساب ـ السمعانى · طبعة ليدن ١٩١٢ ·

٨ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه ـ السيوطى ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ ·

٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ الأستاذ جرجى زيـــدان · طبعة دار الهلال بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ·

١٠ ـ تاريخ الأمم والملوك ـ الطبرى (١) المطبعة الحســـينية المصرية · (٢) مطبعة المعارف بتحقيق الأستاذ محمـــد أبو الفضل ابراهيم ·

١١ ـ التاريخ الكبير : ـ ابن عساكر • مطبعة روضة الشـــام سنه ١٣٢٩ •

١٢ ـ تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادى • مطبعة الســـعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١ م •

١٣ ـ تجارب الأمم ـ ابن مسكويه •

١٤ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ الطبرى (١) المطبعـــة الأميرية ببولاق ١٣٢٥ هـ (٢) مطبعـــة الحلبى بتحقيق الأستاذين محمود شاكر وأحمد محمد شاكر •

١٥ ـ حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة ـ السيوطى • مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ •

١٦ ـ دائرة المعارف الاسلاميه • مادة تفسير ـ بتعليق الأستاذ امين الخولى •

١٧ ـ سقط الزند ـ المعرى • مطبعة بولاق سنة ١٢٨٦ •

١٨ ـ صلة تاريخ الطبرى ـ عريب بن ســـــعد القرطبى • المطبعه الحسينية المصرية •

١٩ ـ الصلة لتاريخ ابن جرير ـ عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى •

٢٠ ـ ضحى الاسلام ـ الأستاذ أحمد امين •

٢١ ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكى • المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٤ •

٢٢ ـ طبقات القراء ـ الجزرى •

٢٣ ـ الطبقـات الكبرى ـ ابن سعد • نشره أدورد سخاو • مطبعة بريل سنة ١٣٢١ •

٢٤ ـ طبقات المفسرين ـ السيوطى • طبعه أوروبا •

٢٥ ـ ظهر الاسلام ـ الأستاذ أحمد أمين •

٢٦ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ ابن خلدون . مطبعة بولاق سنة ١٢٨٤ .
٢٧ ـ علم التاريخ . هرنشو Prof. J.C. Hearnshaw ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى . والفصل الذى كتبه العبادى عن التاريخ عند العرب . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ .
٢٨ ـ العهد القديم .
٢٩ ـ الغنية ـ الجيلانى .
٣٠ ـ الفهرست ـ ابن النديم . ليبزج سنة ١٨٧١ .
٣١ ـ فوات الوفيات ـ ابن شاكر. المطبعه الأميرية سنة١٢٩٩.
٣٢ ـ فى علم النفس ـ الأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ محمد عطية الابراشى .
٣٣ ـ الكامل فى التاريخ ـ ابن الأثير . مطبعة الحلبى سنة ١٣٠٣ .
٣٤ ـ الكشاف ـ الزمخشرى .
٣٥ ـ لسان الميزان ـ ابن حجر العسقلانى . مطبعة الهند سنة ١٣٣١ .
٣٦ ـ مذاهب التفسير الاسلامى ـ جولد تسيهر . ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار سنة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .
٣٧ ـ مروج الذهب ـ المسعودى . المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ .
٣٨ ـ معجم الأدباء ـ ياقوت . مطبعة دار المأمون .
٣٩ ـ معجم البلدان ـ ياقوت .
٤٠ ـ المغرب فى حلى المغرب ـ ابن سعيد . الجزء الرابع طبعه ليدن سنة ١٨٩٨ .

٤١ ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى • مطبعة لجنة البيان العربى •
٤٢ ـ المنتخب من كتاب ذيل المذيل ـ الطبرى • المطبعة الحسينية المصريه •
٤٣ ـ موارد تاريخ الطبرى ـ بحث للدكتور جواد على بمجلة المجمع العلمى العراقى • الجزء الأول سنة ١٩٥٠ والجزء الثانى سنة ١٩٥١ •
٤٤ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ المقريزى •
٤٥ ـ الوافى بالوفيات ـ الصفدى • مخطوط بمكتبه تيمور
٤٦ ـ الولاة والقضاة ـ الكندى • طبعة ليبسك سنة ١٩٢٥ •
٤٧ ـ وفيات الأعيان ـ ابن خلكان • تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد •
٤٨ ـ هداية الحيارى من اليهود والنصارى ـ ابن قيم الجوزية. مطبعة التقدم •

ملحوظة :

وقعت كلمة سراويلى فى آخر صفحة ٦٢ مفصولة فنلفت اليها النظر •

الفهرس

الفصل الرابع

صفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

صفحه

موضوعه :

مصادره :

منهجـــه :

صفحة

صفحة

الفصل التاسع

صفحة

الفصل العاشر



أعلام العرب
الكتاب القادم

الظاهر بيبرس

للدكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور

يصدر في ٧ فبراير ١٩٦٣

مطبعة مصر
٣ شا ... جالة"